# نَجَاةٌ مِنَ النَّثْرِ الفَنِّيِّ

## مَقَالاتٌ ومَقاماتٌ

الجزء الأول

للدكتور
محمد جمال صقر
كلية دار العلوم * جامعة القاهرة
كلية الآداب * جامعة السلطان قابوس

الطبعة الأولى ( وللمؤلف وحده حق الطبع )
١٤٢١ هـ = ٢٠٠٠ م

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/١٣٤٣٣

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٩٢٧٨٥١

بسم الله المولى الأعلى ،
مولى الشعراء المستَثْنَيْن ، مولاي .
أحمد الله العليّ ، كما ينبغي لجلال وجهه
وعظيم سلطانه ، حمدًا لا يَبْلى جديده ، ولا
يُحصى عديده ، ولا يُبْلغ حُدوده ، وأصلى وأسلم
على محمد النبي الأمي العربي ، أفصح العرب
طُرًّا ، الذي سمح له البيان الأبي . رب أعوذ
بك من العِيّ والحَصَر .
آمين !

# فهرس



* * *

# رحم العلم

روى البخارى فى باب ( كيف يقبض العلم ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » صدق رسول الله ﷺ .

وقد فهم هذا عنه الصحابة ، وقدروا العلماء قدرهم ، حتى إنه لما مات زيد بن ثابت - رضى الله عنه - كاتب الوحى وقارئ القرآن وعالم الأنصار ، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : « مَنْ سرّه أن ينظر كيف ذهاب العلم فهكذا ذهابه » .

لقد علم سلفنا الصالح أن العلم قائم بالعلماء ، غير منفصل عنهم ، يحيا بحياتهم ، ويفنى بفنائهم ؛ من أجل هذا كان إعزاز العالم لنفسه ، والمتعلم لعمله ، ومن أجل هذا كان احتقار العالم والمتعلم - وهما كأنهما شخص واحد - للجاهل والمتجهل - وهما كأنهما شخص واحد أيضًا .

هذا بعض علماء سلفنا وشعرائهم يقول :

حسود مريض القلب يخفى أنينه ويُضْحى كئيب البال عندى حزينه

يلوم على أن رحت فى العلم طالبا أجمّع من عند الرجال فنونه

وأملك أبكار الكلام وعُونه وأحفظ مما أستفيد عيونه

ويزعم أن العلم لا يجلب الغنى ويحسن بالجهل الذميم ظنونه

فيا لائمى دعنى أغالى بقيمتى فقيمة كل الناس ما يحسنونه

إنه يعز نفسه وعمله ، ويحتقر الجاهل وعمله ويسفه رأيه . وقد ضمَّن آخر كلامه كلمة للإمام على – كرم الله وجهه – شهرت حتى صارت مثلًا ، هى « قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحْسِنُ » .

ولسيدنا علىّ كلام فى العلم والعلماء والناس ، نفيس خالد ؛ فقد أخذ بيد غلامه ثم قال له : « يا كميل بن زياد ، إن هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، فاحفظ عنى ما أقول لك : الناسِ ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رَعاع أتباع كلِّ ناعق يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يَلْجأوا إلى ركن وثيق . يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق ، وصنيع المال يزول بزواله . يا كميل بن زياد ، معرفة العلم دين يدان به ، به يكسب الإنسان الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، والعلم حاكم ، والمال محكوم عليه »

وقد فهم هذا التصنيف عنه التابعون ، حتى إنه لما سئل ابن المبارك : من الناس ؟ قال : العلماء ! فكأنه لم ير غيرهم ناسًا ﴿إن هم إلا كالأنعام﴾ .

وإنما العلم أستاذ وتلميذ ، بينهما رحم العلم ، ولكل تلميذ من أستاذه نصيب . كان العربى القديم إذا قال « أنا من غَزيّة » علم سامعوه أنه متبع قومه غير مبال أغووا أم رشدوا . وكذلك التلميذ اليوم – ولا سيما فى الدراسات العليا – إذا قال : أنا تلميذ فلان ، علم سامعوه أجاد هو أم هازل ؟ أوَرحب الصدر أم ضيق العطن ؟ بل ربما علموا أكريم هو أم بخيل ؟!

وما ذلك إلا بعض آثار « أنا من غزية» !

ألا فلتتق الله «غزية» ، ألا فلترشد « غزية » ، ألا فليعلم أساتذة هذا

الزمن أن تلامذتهم يقلدونهم ، وأنها السنة تُتّبع ، وأنهم بين الأُجر والوزر يقعون !

وربما جاز لى - وأنا أمثالى - أن أقول: **«من أشبه أستاذه فما ظلم»** .

* * *

# حَديثُ الثَّقافَة

مرحبًا يا أحبائى ، أتعرفوننى ؟ أما أنا فالمشتاق إليكم دائمًا ، البعيد القريب ! أنا الذى هجر القاهرة مُكْرَهًا رغم عمله بها فكان فى هجره الوصل الحق !

لقد صار من أمرى أننى أصبر نفسى فى الريف حيث أقيم ، مع العبادة والعمل وبعض الرياضة والترفيه القليل ، زمانًا تُطَوِّله خَشْيَةُ وعثاء السفر وكسر النظام ، حتى إذا ما برَّح بى ظلام العزلة ، أقبلت أهرول إلى القاهرة أتمنى أن لو استطعت أن أذيبها فى دمى أو أذوب فى معالمها .

إنه إذن الداء العَيَاء القديم ( العشق ) ، وأظهر علاماته ( الشوق ) الذى يُحْدثه ( البُعْد ) .

ولكن هذا البعد يُطلع ذلك العاشق على حقيقة صورة معشوقته التى كان وهج العشق يعمى عينه عنها وهو قريب منها ممتزج بها .

لقد فضح البعد للعاشق كثيرًا مما شَوَّه صورة معشوقته من دَرَن الزيف وخَبَث الباطل – وكان أخطر ذلك كله أثرًا عنده ما لاكته وتلوكه أفواه الإعلام من حديث الثقافة الذى يخلُبُ بالزور ألباب الناس حتى أهل العلم منهم .

لقد استطاعت أفواه الإعلام أن تغرس فى عقلى وأنا فى ميعة الصبا وعنفوان الشباب ، أن الثقافة التى إذا حصلتها كنت الشخص اللامع المسمَّى مثقفًا ، هى أن أستوعب ما قاله ماركس وإنجلز وديكارت وسارتر وأشباههم من الفلاسفة ، وجوركى وإليوت وموليير ورامبو وأشباههم من الأدباء ، وييف وويليك وبوفون وكوهين وأشباههم من النقاد ،

وسترافنسكى وبيتهوفن وموزار وباخ وأشباههم من الموسيقيين، وبرسلى وجلسياس وجاكسون وهيوستن وأشباههم من المغنين، وجيبل وفوندا وديمى مور وتايلور وأشباههم من الممثلين.

ولقد تبين لى أن استيعاب هذا وما إليه، حرى بأن يخرج ذلك المثقف المقصود، متى كان القصدُ إخراج مثقفٍ غربيٍّ، وأن كونه عندئذ مثقفًا إسلاميًا عربيًا خطأ محض مهما كان الشخص من حيث نسبه وموطنه ولغته ودينه المدونات فى هويته، وأن محاولة إيهام الناس ذلك تزييف وإفساد.

إن الثقافة شطر الحضارة الأخطر شأنًا الأسبق وجودًا بحيث ينبنى عليه شطرها الآخر المتمثل فى علوم المادة البحت؛ فإذا جعلنا الحضارة شجرة، كانت الثقافة جذْرها، ثم كانت علوم المادة البحت فرعها الموصول بالجذر، والحى به كذلك.

إن الثقافة عبارة عن مجموع العقيدة والعلوم والمعارف والخبرات الإنسانية التى تتعلق بها أى مجموع ما يثقف الإنسان فيقوِّم منهجه ويعدِّل سلوكه فى الحياة؛ فمن ثم كانت الثقافة وحدها موطن اختلاف الحضارات بعضها عن بعض؛ إذ لا خلاف بينها أو ينبغى ألا يكون بينها خلاف فى مجموع العلوم والمعارف والخبرات المادية التى تتناول ما فى الكون من حيوان ونبات وجماد، ولو لم تختلف الثقافات - وهو غاية ما يتمناه دعاة (العولمة) - لكانت فى الكون حضارة واحدة، وهو ما دل الواقع واتفق حكماء هذا الزمان جميعًا على خلافه، وما خبر ما أصدره المعهد العالمى للفكر الإسلامى فى «إسلامية المعرفة»، وما كتبه صمويل هانتنجتون فى «صدام الحضارات» - وهما جميعًا وليدا الولايات المتحدة الأمريكية - عنكم ببعيد.

لقد تبين لى أن الثقافة التى إذا حصلتها كنت الشخص اللامع المسمى مثقفًا إسلاميًا عربيًا ، هى مجموع القرآن الكريم والحديث الشريف وما خرج منهما وانبنى عليهما ونشأ من أجلهما من أقوال وأفعال وإقرارات وعلوم ومعارف وخبرات ، منذ أن نزل القرآن الكريم وإلى الآن .

إن هذا - بلا ريب - شيء ضخم لا تقوم له جماعة عظيمة الهمة فضلًا عن شخص مثلى ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله بل يدرك بعضه ، وهو السبيل إلى حماية ثقافتنا ومن ثم حضارتنا أن تذوب فى غيرها ؛ فعندئذ - لا قدر الله - لن تقوم لنا قائمة ولن يعبأ بنا أهل تلك الحضارة الأخرى مهما كان شأن بعضهم مع بعض تكافلًا وتلاحمًا وتعاطفًا وتراحمًا .

إن من ذلك المجموع الضخم الذى يكوّن الثقافة ، (الأدب) على اختلاف أنواعه وأشكاله ؛ فهو البيان الذى علمه الرحمن الإنسان ، والذى عجب من عظيم أثره رسوله ﷺ ، والذى استعمله بعض صحابته رضوان الله عليهم ، فى دعائه ربَّه ، فتدافعت الملائكة وتسابقت إلى كتابته .

يا ما أكثر عدد الأدباء الآن وما أضخم نِتاجَهم الأدبى !

لقد نام حراس قصر الأدب فغافلهم كلُّ من شاء فدخله ، ولو لم يناموا لقُتلوا ! ولا حاجة بنا إلى قتال اللصوص منهم ؛ فقد دخلوا قصر أدب غيرنا وزَعَمُوه قصْرَ أدبنا ، فلا بأس علينا إن شاء الله !

ولما كان الأدب بعضًا من الثقافة ، كان حديثها الذى سبق بيانه والفَصْلُ فى أمره ، مُغْنِيًا عن تكرار القول فى حديثه .

أعرف أننى لم أبتكر جديدًا بما قلته ، ولكننى مضطر إلى الإلحاح على كثير من المعروف أو المسلم به ؛ ففضلا عن أن هذا مقام الخوض فى

حديث الثقافة والمثقفين ، يعتزم التلفاز المصرى إنشاء قناة ثقافية ويستشير فى أمرها من له بما قلته علم ومن لم يخطر له ببال ، فالصمت الآن إذن شيطان .

فهل شاهدنى تلفازنا ؟!

أم صحت فى واد ونفخت فى رماد أو قربة مخرومة ، والسلام !

* * *

# مُوسَى وهَارُون!

غصت محبًا ، حققت ودققت ، فوجدت القصة قصة موسى يصحبه هارون : تراث العرب تَمَثَّلَ موسى ، وهارون تَمَثَّلَ هارون .

أعظم ما امتلكت تلك القبائل الساكنةُ ( العَرَبَ ) ، هذه اللغة الثرية ثراء فاحشًا بما اكتنزت من فضة منثورها وذهب موزونها ، اكتنازًا لن تكوى به يوم الموقف العظيم !

جاءها الإسلام فزادها بسطة فى المنثور والموزون بما فتح من بابات علومه ، وبابات العلوم التى أهاب بأهله أن يسبروا أغوارها ، غير أن ضعف أهل الإسلام أهال الغبار على ما اكتنزت العربية ، فغاب كل كنز عن عيون أهل الإسلام أهل العربية الغافلين ، حيث غاب .

على أشلاء الكنوز المغيبة كان يعكف فتى ذكى العينين ، يرى هذه الأشلاء تكاد تكشف سرًا خطيرًا ؛ فهى تلفته بمثل قولها « إن وراء الأَكَمة ما وراءها » ، و« كل ذى غيبة يئوب » .

ما أقل هذه الأشلاء الباقية إلى ما يقرؤه فى ( كتاب الله ) أرقى الكلام العربى الذى يستحيل فى حقه أن يبقى هذه القرون ولا يفجر كنوز الكون والإنسان تفجيرًا .

تقوّى بما تكشف له آثار أقدام سرقة كنوز لغته ، تبعهم بحنكة من طويت له الأرض ففضح ما يجرى خلف كل أكمة : « يا ألله يا ألله ويلهم !... كنوز قومى ويلهم !... عقول قومى » .

رجع إلى نفسه فعلم أن طول دهشته لن يجدى نفعًا ، فذهب يحمل ما استطاع من أوعية لغة العرب ، يملؤها ، يحفظ فيها ما استطاع أن يعريه ويفلت به .

وَثِبَ غيره !

جاهد جهادًا ندر من قام له قومته :

علق بيدنه سقط (سيرة ابن هشام) و(إحياء الغزالى) و(حيوان الجاحظ) .

لم يفلته (حيوان الجاحظ) فكم نطحة أو نهشة أو ضربة ما لقى .

كم تعب احتيالا لفتح (خزانة البغدادى) .

ما أحسبه نجا من (برصان الجاحظ وعرجانه وعميانه وحولانه) .

قد صاحبت ثعلبا أحمد بن يحيى ، فما أرى صاحبنا إلا اعتراه بعض آثار مكر الإمام الكوفى .

درد الرجل فما عاد يعجم ليِّنًا بعدما لحقه من قسوة المعاجم .

وماذا وماذا .. ؟

غير كل هؤلاء بلايا مارسها فقام لها ، غير أن طول العناء مارسه كذلك وبراه كما يبرى الموسى القلم ، فبرية القلم ثلمة الموسى، فما يفتأ كلٌّ يصيب صاحبه !

أجل غاص .

وأجل خَبَرَ وتحنك وجاهد وتواضع وغُبن ولم يعبأ .

وأجل تعب وضنى .

وذات مرة وكان يحفر الدهر عن مفاخر قومه ، كنوز لغته ، علقت فأسه بشيء شديد ، نشط له ، جذبه ، كان كنزًا مهيبًا ، رفعه على كتفه ، حمله خارجًا به من غربته إلى النور ، فخر عليه الكنز الشديد ، فلم يقم له بدنه المضنى ، فخلاه صريع ذخائر العرب (ابن خَلِّكان) رحم الله شيخنا عبد السلام هارون !

* * *

# افعلوا ما شِئْتُم فقد رَحَلَ أبو فِهْر

أيُّها المُتَشاغلون بالعلم والعمل ، قَرُّوا عَيْنًا ؛ إنّ الذى تَرْجُون قد وَقَع !

لقد أَفَلَ نَجْم الرّقيب العتيد الذى كان يُمْسِكُكُم بعضُ حياءٍ منه أو خَوْف ، أن تَمُدُّوا أرجلكم وتُلْقوا كلامكم على عَوَاهِنه ، فالآن مُدُّوها وأَلْقوه !

انهدّ الجَبَل الصَّعْب المُرْتَقَى ، وامّحَتْ خُلاصة أَثَر سَلَفنا الصالح ؛ رَحَلَ العالم اللغوى الأديب أبو فهر محمود محمد شاكر ، الذى أَشْرَقَ بنور الحق على بلادنا وهى مكفوفة بظلام الباطل ، فملأُها فَهْمًا وعلمًا وفنًّا وحكمة .

كان هو والحقُّ أخوَيْن أُرضِعا بلبان ، لا يحيا هذا إلا بما يحيا به ذاك ، ولا يتعلّق أحدهما إلا بما يتعلّق به أخوه ، يُخْبر عن الحقّ والحقيقة كما يُخْبر عن نفسه التى هو أَعْلَمُ بها ، ويخاطِب الحقَّ والحقيقة كما يخاطب نفسه حين يُجَرِّدها .

تَعْرِفُ ذلك حين تَذُوق ملحمته الكبرى ( اعصِفِى يا رياح ) ، وهى أربعة ومائةُ بيت ، من الخفيف الوافى بحرًا ، والمتواتر قافية ، والراء رويًّا ، والألف وَصْلًا ورِدْفًا . إنها ثمانية أجزاء ( كلُّ جزء منها ثلاثة عشر بيتًا ) مُقسّمة بينه وبين الرياح ( الحقيقة ) التى يَسْتثيرها لِتحكِى له فيحكى لها :

يناديها فى مطلعى الجزأين الأول والثانى : « اعصفى يا رياح » ، آمرًا أَمْرَ الأخ أخاه ، لتكشف زَيْف هذه الحياة الدنيا منذ أن كانت ، وتعجب أو تسخر من أفاعيل الإنسان فيها ، ثم فى مطلع الجزء الثالث : « اذكرى يا رياح » ، لتفخر بقديم عِلْمها بمُضْمَن طوايا هذا الإنسان الذى يصير بعد

طول البغى إلى العجز، ثم فى مطلع الجزء الرابع : «أَنْصِتِى يا رياح»، ليحكى لها كيف عانَى هو أن يبلغ مَبْلَغها فَهْمًا لمضمن طوايا هذا الإنسان، ثم فى مطلع الجزء الخامس : «اسمعى يا رياح»، ليبوح لها بأن ما فيه من طبيعة الإنسان - وهو ما لا فكاك له من وطأته - يكاد يقعد به عن احتمال هذه الدنيا، ثم فى مطلع الجزء السادس : «أَنْصِتِى يا رياح»، ليخبرها بوسائله إلى تمييز صُنُوف هذا الإنسان، وكأنه يَسْتَثْبِتُها، ثم فى مطلعى الجزأين السابع والثامن : «انظرى يا رياح»، ليختم هذه الملحمة الكبرى عنه هو بمثل ما بدأها به عن الرياح (الحقيقة)، فيبيّن ما وقف عليه من حقيقة ما ارتكبه الإنسان فى هذه الحياة الدنيا، وما اقتحمه واجترأ به عليه عقلُه الذى لم تَحُدَّه حدود الغَيب، فيقول فى هذين الجزأين الأخيرين :

«انظرى يا رياح، يا وَحْشةَ الطَّرْف إذا دار يَمْنةً أو يَسارا
ما الذى تُبْصرين، أشباحَ فانِين مرارًا تُرَى وتَخْفى مِرارا
وُجِدوا، ثم أَوْجَدوا، ثم بادُوا، واحتذَى نَسْلُهم فزاد انتشارا
وتمادى البقاءُ فيهم دواليك، فشَىءٌ بدا، وشىء تَوَارى
أَوْغَلُوا فى الحياة جِيلًا فجيلًا، وتجلّى طليقُهم وأنارا
فمضوا يُبْدعون فى حيثُ حَلُّوا، وتَبارَوْا حِضارةً وابتكارا
ما كفاهم ما بُلِّغوا، فاستطالوا، ثم خالوا فأسرفوا إصرارا
شُغفوا بالخُلود فى هذه الدنيا، فأعطتهمُ الخلود المُعارا
عَمَرُوا الأرضَ زينةً ومَتاعًا، ثم نُودوا : كفى البِدار البِدارا
ثم مَرّوا أشباح فانِين ما تملك فى حَوْمة الزَّوال قَرارا
لم يكن غيرَ خَطْفة البَرْقِ إذْ تَبْنِى وتُعْلِى، ولم يكَدْ فانهارا
ذهبَتْ ريحُهم، وهبَّتْ رياح، فأقامت على القبور الديارا

ضَلّ هذا الإنسان ، يَكْدحُ للخُلْد ، وأقصى الخلود : كان فصارا
انظرى يا رياح ، ذا القَبَسُ الوهّاجُ قدْ راوَغَ الفَناءَ اقتدارا
عاش تحت الأطباق دَهْرًا فدَهْرًا يَتَلَوَّى بِثِقْلهنّ انبهارا
كلّما رام مَنْفَذًا رَدَّدتْه فى ظلام الأعماق يعلو صَغَارا
لم يَزَلْ دائبًا يُنقّب مُلتاعًا ويحتال فى صَفاها احتِفارا
صَدَعَ الصَّخْرةَ المُلَمْلَمَةَ الكبرى ، وأَسْرَى حتى نما فاسْتَطارا
ورأى نُورَه ، فَجُنَّ من الفَرْحة ، أعمَى رأى الظلام نَهارا
أىُّ شَىْءٍ هذا ، وما ذاك ، بل هذا ، وزاغَتْ لِحاظُه اسْتِكْبارا
قد رأى عالمًا مَهُولًا من المجهول ، غَشّاه نُورُهُ فاستنارا
ليس يَدْرِى ، أَهُمْ عِدًى ، أم صديق ، أيُبِينون لو أرادا حِوارا
أم صُمُوتٌ لا ينطقون ازدراءً لغريبٍ عنهم أساء الجِوارا
واغِلٌ يعتدِى ، يُسائِل عن أسرار خَلْقٍ أَجَلَّ مِنْ أن تُثارا
كيف غَرَّتْه نفسه ، كيف ظَنَّ الغَيْبَ يُلْقِى لِثامَه والخِمارا
أَمَلٌ باطلٌ ، فلو أَسْفَرَ الغَيْبُ لأَعْمَى بنُورِهِ الأنوارا »*

* ( اعصفى يا رياح وقصائد أخرى ) ، طبعة المدنى بمصر .

عندئذ ينجلى لك كيف كان هو والرياح ( الحقيقة ) ، فَرَسَىْ رِهان ، يَغْدُوَان معًا ، ويَظْهَران على هذه الحياة الدنيا كَرًّا وفَرًّا وإقبالًا وإدبارًا معًا .

سيدى وشيخى أبا فهر ، رحمك الله ، يُثْنِى عليك ظاهِرُنا وباطنُنا ، وناطقُنا وصامتُنا ، كُلٌّ يزعم أنه أصدق لك وُدًّا ، وعليك ثَناءً ، ولطريقتك اتباعًا ، غير أنه يصير إلى الصَّمْت عَجْزًا .

* * *

# الحاجّ فَرَماوِى

كنت أخشى نظراته ، إذا تأخرتُ فلم أكن معهم فى صلاة الفجر ... لكننى اليوم – وكعادتى هذه الأشهر – أقمتُ الليل كلَّه قراءةً لكتب اللغة والأدب القديمة والحديثة ، أقمته حتى الفجر ... وتوضأت وأسرعت عقب الأذان إلى ( مسجد المصطفى ) مارًّا ( بعيد ) صديقى المتزوج الذى ينام فى حجرته المطلة على الشارع فى الدور الأرضى ، فأَقْرَعُ شُباكه فيغالب النوم قائلا : هِهْ ... فأصيح فيه – كعادتى معه – : قُمْ ، عيد ، قم ! فيجيبنى بسرعة كسرعتى : حاضر ، فأتجاوزه بعد أن أثق فى قيامه ، وأَحُثُّ الخطا إلى ( مسجد المصطفى ) ...

هذا المسجد الذى يأخذ نصفَ أَرْضٍ عمارة كبيرة أو أكثر من النصف ، بناه رجلٌ طيب اسمه ( الحاج فَرَماوِى ) .

كان ( الحاج فرماوى ) للمسجد قِبْلةً مع قبلته !

نعم ، كان الداخل هذا المسجد ينظر إلى القبلة ليعلم هل أقيمت الصلاة ، وينظر إلى الحاج فرماوى ليعلم هل ستصلحُ الصلاة ، هل ستحلو الصلاة !

لم يكنْ إمامَنا دائمًا ، غير أنّه كما ذكرت ، كان قِبْلَتَنا دائمًا .

كنّا أَصْغر من أبنائه ، غير أنه كان معنا أَفْضَلَ من آبائنا ! يُلاطفنا بما يناسِب كُلًّا منا ويمازحنا مزاحًا رقيقًا يُقَرِّبنا منه ولا يأتى على شىء من قيمته ومكانته فى قلوبنا .

كان يُحبُّ أن يحاورنى أىَّ حِوارٍ كان ؛ لأننى كنت أعرف كيف أَقْتنصُ ضحكَه الذى يجعل حديثى يَلَذُّ له دائمًا .

كان الرجل فلاحًا حافظًا للقرآن مُحبًا للعلم منذ صغره، توفّي والده، فمنعه من دخول الأزهر قيامُه بما كان أبوه يقوم به، ولكنّه ظَلّ بين الحين والحين يتخطّف العلم من هنا وهناك، حيث كانت تقام حلقات العلم فى المساجد لأيامه، ويَتَصَدَّرها علماء أفاضل يحترمون العلم وأهله وطلابه، فلا يخلطون لهم خلطًا سيئًا مشوّهًا فاسدًا كالذى يحدث اليوم!

وكان يتخطّف سماع القرآن من هنا وهناك، حيث حَلَقَات التجويد، أَوْ سرادقات العزاء. كان عقلُه المُتوفّز يلتقط كلَّ معلومةٍ وكلَّ طريقةٍ نُطْق ويخزنها فى خزانته التى لا تَخْرِمِ شيئًا!!

هكذا كان يقول لى...

يقول: كنت قديمًا أسمع الشىء فأستوعبه ويُسَجَّل هنا - ويشير إلى دماغه - فلا يخرج أبدًا مدى حياته - حياة الحاج فرماوى!

وفَجْرَ اليوم أسرعتُ إليه، أقصد إلى المسجد، لقد صارا شيئًا واحدًا!

كنت أخشى نظراته، إذا تأخرت فلم أكن معهم فى صلاة الفجر... لكننى لم أتأخر... ودخلتُ المسجد... نعم، هذه القبلة الأولى... ولكن... أين القبلة الثانية؟ أين (الحاج فرماوى)؟... إنه... ليس هنا... هاه... أخيرًا أيها الحاج، أخيرًا أخذتُها عَلَيْك، نِمْتُ أيها الحاج وأَدْلَجَ النّاسُ!

لَسَوْفَ أنظر إليك نظرةً تَرُدُّ عليك ما نَظَرْتَهُ إلىَّ مِرارًا... لَسَوْفَ أُعاتِبُك كما كُنْت تُلاطفُنى فهكذا الشباب إذا وجد عثرةً للشيوخ أسرع فضَرَبَ بها الطَّبْل كما يقول المَثَلُ العَرَبى.

دخل إلينا الإمام الذى كان يؤمُّنا فى الفجر والعشاء غالبًا، وتَلَفت إلى القبلة الثانية... تَلَفَّتَ كما تَلَفَّت من قبله المؤذّن ومن قبله أنا...

تلفّت فلم يجد القبلة ! ... أعاد التلفت هنا وهناك وهنالك وهاهنالك ... لا مناص من أن تقيم الصلاة يا عم عليّ ، وأقام الصلاة العم عليّ ، وصليّنا ، وانْفَتَل كلٌّ إلى منزله وما تزال بقلبى تلك النيةُ : العتابُ ...

جئتُ لصلاة الظهر ... ما هذه الأعدادُ الكثيرة ، ما هذا السرادق القريب من المسجد ؟... هؤلاء أبناء الحاج فرماوى وسط المُعَزِّين !...

ودخلْتُ المسجد وصلَّينا الظهر فقام رجلٌ وقال :

– اقرأوا معى جميعا الفاتحة على روح ال... روح ال... روح ال...

– روح المن أيها الرجل ؟!

– روح ( الحاج فرماوى ) ...

– آه ... واعتاباهْ !

* * *

# إلى شيخى ذى التسع سنوات

أجل رأيتك، ولكن اختطافًا، من شباك قناة طنطا التلفازية؛ فقد شُغلتُ عنك، عفوًا، بسهرة فرنسية على قناة أخرى، لعنة الله على تلك السهرة وعلى أصحابها!

أجل رأيتك، بعد أن أفلت منى لقاؤك بالرئيس فى احتفال المولد وتكريمُه لك، فأغضيت عن نفسى حياءً؛ فأين أنا منك؟

لقد كنت أعظم نفسى أمام نفسى بلْه غيرى، فالآن سقط عنها وجهها فبانت لى...

ما أصغرنى!

لا عليك من تلك المذيعة البلهاء، يا شيخى ذا التسع السنوات، تزحم سمعك بأسئلتها المتداعية وأنت تحار أن تفهمها أن يوم المولد النبوى الشريف يوم من أيام الله تقضيه كما تقضى غيره، هى تضطرك إلى عبث الصغار، وأنت تهديها إلى هموم الكبار، هى سافرة متبرجة مجترئة العينين، وأنت فى ثيابك البيض، راحل النظر إلى هنالك...

فأين رميت بصرك؟

أحسن الله إلى من علّمك!

أتريد أن تتعلم العلم الشرعى كله وأن تتيسّر لك كتبه، بعد أن حفظت كتاب الله سبحانه، وستة آلاف حديث بأسانيدها، هى السنة أخت الكتاب وتمامه؟

أحسن الله إلى من علمك!

ما أدق نظرك وأحصف رأيك يا شيخى ذا التسع السنوات!

هلا أذنت لى ولأهلى أن نجلس إليك لنأخذ عنك علمك وعملك ونطقك وصمتك ونظرك وغُمْضك ... فإذا أجزتنا نشرنا ذلك فى الآفاق ليعلم العالم كله طرفًا من حقيقة الحياة والعلم والعمل، يزهّده فى نفسه، ويصرفه عما يرديه فيه جهلُه !

دعهم يأنفون ويتأفّفون ؛ فأنا لا آنف ولا أتأفّف ؛ لقد رأيتك، بارك الله فيك وعليك وحولك - وإن كانت اختطافًا - فرأيت وجه الحق ونور الإيمان على معارف وجهك الشريف، أجل، فأغضيتُ عن نفسى حياءً !

* * *

# عمه صلاح

بدا لمحّسِن أنه وحده الذى يعرف لعمه صلاح مقداره حقًّا ؛ إنه يتمتع بالحديث عنه ، ويَطْربُ حين يذكر حبه له ، فلا يجد سامعه يطرب لهذا ولا يتمتع بذاك !

( يالأقربائى وأهل قريتى ، يُحبون أنفسهم وذويهم ويَغْفُلون عن حب عمى صلاح ! ) .

كانت دنيا فى عينه طفلةً غِرّة حين استولى على قلبه حب عمه صلاح ، على رغم أنها كانت فى عيون أقربائه وأهل قريته شابة فاتنة جديرة بعنايتهم ورعايتهم .

وما عمه صلاح وما حُبُّه ؟

إنه ابن عمٍّ لأبيه ، مسكين ، أجير لجدِّه ، يعامله بالمزارعة ؛ يقوم على زراعة أرضه الصغيرة بنصف المحصول .

كان جَدُّه غضوبًا ، وكان عمه صلاح حمولا . ربما كان يحفظ للجدِّ أنه عَمُّه أى أبوه بعد أبيه الراحل من زمن غير قريب ، لذا كان يناديه بالأبوّة ، فكان محسن يفرح عندئذ لهذه القرابة أيّما فَرَح ، ربما كان ذلك كذلك ، غير أنه وجد الصَّبر وسعة الصدر ولين الجانب وجميع ما يتفرع عن هذه الأخلاق الجليلة ، طبعًا راسخًا فى عمه صلاح ، لم يخُل عنه ولو مع طفل غِرٍّ لا يميّز .

إن محسنًا غير محتاج إلى دليل ؛ فهو الآن يميّز أنه كان ذلك الطفل الغِرّ الذى لم يكن يميز من حقيقة معاملة عمه صلاح له ومعناها ، إلا الارتياح لها والشّوْق إليها .

كان حين يرحل مع أبيه حيث يعمل، يلسَعُهُ الحنين، وتَخِزُ قلبه أيام الفراق من قبل أن يستحكم، ويؤرق نومه أنه لو نام لصحا فلم يجد عمه صلاحًا، ثم تلهيه أحداث حياته، حتى إذا ما حان الإياب أرّق نومه أنه لو نام لفقد متعة انتظار لقاء عمه صلاح، ثم يلقاه، فيُقْبِل عليه لا يدرى كيف يفعل أو يقول غير أنه يبتسم مرتاحًا.

– عمى صلاحا، خذنى معك إلى «العُقْر» فإذا أردت الرجوع، رجعت وحدى.

– أذهب اليوم إلى «حوض العرب» لا «العقر»، وهو غيطنا البعيد الذى من قصده صحا قبل الشمس ثم لم يرجع إلا بعدها.

– أنا موافق، ولك علىّ الصبر والطاعة!

– ليس لك من طعام ولا شراب هناك حين تجوع وتعطش، ولن تجد فيما يأتينا به جدُّك من طعام إلا الجبن القديم المُدوِّد وخبز الذرة الناشف، والماء فى القلة الضخمة المخبوءة بين الزرع، التى تعجز دائمًا عن حملها.

– لا أريد غير ذلك، بالله خذنى معك، خذنى معك، معك...

قبل الشمس يأتى عمه صلاح ليسحب البهائم من الزريبة : الحمارة البيضاء الأصيلة حمّالة الأذى الصبور، والناقة الحمراء المكحولة العينين المغربية، والجاموسة السوداء القَرْناء الأليفة، والنعجة البلقاء المِئْآم.

يسحبها هَوْنًا لكيلا يقلق الحضريين النائمين، بعد أن يكون قد أفطر مع الجد وشرب الشاى المرّ الذى صنعته الجدة، فينبّه محسنًا شوقُه الشديد الذى نام به، فيتسلل من جوار أمه سيِّئ الظن بهون عمه صلاح أن يكون انصاع لرفض جده المعهود لذهابه، ثم يتسلل من جده وجدته إلى ناصية الشارع التى يمر بها، فإذا ما فوجئ به ابتسم وهيأ له من قَدَمه ركابًا يدوسه متعلقًا بيده، ليرفعه رديفًا له على الحمارة أو الناقة اللتين كان

يراوح بينهما لأسباب لم يعلمها عندئذ ولم يعبأ بعلمها ؛ فلقد كان يكفيه أن يعلم أنه قد رضى عن فعلته حقًّا . بعدئذ يذوب متعة بصحبته وشمّ رائحته الخارجة من أخلاط معاناته .

– ألم يأن لغيطنا أن يأتى بعد ؟!

– إنه لبعيد من الدار ، غير أننا أوشكنا .

فى الغيط ينقلب عمه صلاح شخصًا آخر ، فلاحًا جبارًا رحيمًا ، يخلع ثوبه ، ويكتفى بقميصه القصير ، ويكافح الأرض والماء والزرع والشمس القُساة ، ويدافعه عن ذلك كله ، لا يستعمل إلا جسده وقلبه وعقله .

يجلس محسن إلى الترعة تحت الكافورة ، يراقب البهائم التى تتلمس فيما بقى فى الموضع من طعام الأمس شيئًا تَتَصَبَّرُ به ، والغيط الذى أخفَتْه عيدان الذرة الناضجة ، يتسمع خَشْخشة أوراقها المعهودة ، ليتنبأ بمخرج عمه صلاح الذى يظهر مخبوءًا بحمل أوراق الذرة المراعاة فيه كفاية بطونٍ لا تشبع ، تَعِبًا تَعِسًا بعنائه ، فإذا ما طرح عن نفسه حمله الضخم أمام البهائم ، وجّه وجهه تلقاءه مرة وتلقاءها أخرى ، مبتسمًا عريض الابتسامة ، يزرع بقلبه الأُنس ، ويُرَغِّبها فى الطعام حتى إنه ليُهَيِّئ بعضه ثم يضعه فى فم بعضها .

ما أجمل بسمته المزدانة بالعرق المُتْرب والقَشّ !

سبحان الذى خلق عمّه صلاحًا وهداه إلى تلك البسمة التى يحسن بها إلى خلق الله جميعا !

– خُذْ هذا فكُلْه ، وهذا فمُصّه .

– وما هذان ؟

- هذا «الجُغضيض» أخو الرِّجلة، غير أنه أطيب منها طعمًا، نبات يُحبِّنا ونحبه، وهذا عود ذرة مُحمرّ علامةً على حلاوة عصيره، كأنه القصب، طعام وشراب يتألَّف بهما غيظ الذرة قلب فلاحه، صَبْرًا على عنائه، فتصبَّرْ بهما حتى نثوب.

- (آه، يا عمى صلاحًا، لقد كان أسبوعًا لا يومًا!

أخيرًا أقبلت على القناة تغتسل وتتوضّأ وتلبس ثوبك الذى برَّح به الشَّوْق إلى جسدك الأليف.

أخيرًا أَبَحْتَ لى أن أحُلَّ قيد الحمارة العزيزة، ريثما تحل عقال الناقة وقيد الجاموسة والنعجة. والله لولا أن تأخذها علىّ لصرخت شوقًا إلى هذه الأَوْبة معك!).

على مثل ما غَدَوَا بالبهائم رديفين صباحًا، يروحان هذا المغرب، وكأن الحياة الدنيا تروح معهما عن كلّ ما يبرحانه من مواضع، كأنها مصباح بأيديهما يمُرّان به فتتبعه الظُّلْمة. إنهما يركبان الناقة، ومحسن أمام عمه صلاح، متشبِّث بشعر السنام، يعجب لطاعة الناقة الشَّموس ولينها لعمِّه، بل يفرح معها به حين يحدو بها نشاطًا وحُبًّا، يُدَنْدِنُ بنغمٍ غُفْلٍ من الكلام، يُحَوله بعد استقامته ورسوخه، شعرًا رائقًا:

تُؤلمنى فتنةُ الجَمالِ تجعلني ضُحْكةَ الرجالِ
قد أصرع الهول لا أُبالى وأُعْلن الضَّعْفَ للدّلالِ
يا أيُّها العاشقُ المُتَيَّمْ تَخَلَّ عن وَهْمِك المُهَشَّمْ
ولتتْرُكِ العِشْقَ لَسْتَ تَعْلَمْ أنَّ الهَوَى قد هَوَى بحالى

لم يكن طرب محسن لحُداء عمه صلاح، بأشدّ من طرب الناقة الحمراء المكحولة العينين المغربية، غير أنه كان أعظم سعادة، حتي إنه ليتمنّى ألّا يصل إلى الدار، فتضل القافلة الطريق، أو تتباعد الدار، فيظل

مُتَشبِّثًا بالسنام رديف عمه صلاح ، على ناقة قُدِّر لها أن تسيح فى الأرض ذات الطول والعرض !

ولكن محسنًا كان قد لاحظ رغم بقائه القصير فى هذه الحياة ، أنه كلما تمنّى شيئًا وانصرف إليه خاب تمنّيه ، فعزم على أن يُخْفى أمانيّه دائمًا عن نفسه بأن يوهمها أن المرغوب مستحيل ، فكان يذكر عزمه هذا مرة وينساه مرارًا ، حتى كانت قاصمة الظهر .

- (ما هذا ؟

لماذا تخرج عمتى لتنتزع حبال البهائم من يد عمى صلاح وتزجره ؟

لماذا يذهب عن الدار وحيدًا إلا من الانكسار ؟

لماذا يحضر العم محمود هذا فيقوم بما يقوم به عمى صلاح ويحل محله؟

ما الذى استطاعت به دنيا أن تحوّل حال الناس وتثير بعضهم على بعض ؟) .

كانت دنيا فى عينه طفلة غِرّةً وفى عيون أقاربه وأهل قريته شابّةً فاتنةً آسرة باطشة .

صار حين يرحل مع أبيه إلى حيث يعمل ينام ملء عينيه !

* * *

# جمل

- كنت أركب الجمل وهو يجرى ، كانت بى قوة جمل ...

قال جَدِّى الشيخ ذو الهيئة المُصَدِّقة قوله وقد سبق الثمانين .

إنه الآن مضطَجِع على مصطبته التى يلازمها لأنها تضطجع أَوّلَ الدار بحيث تمكنه من أن يراقب الداخل والخارج والصامت والناطق ، وأنا جالس أمامه على حصيرة مبسوطة بدهليز الدار ، ظهرى إلى جدار القاعة البَرّانية العتيقة المجيدة التى آوت عوائل عريضة ملأت الدنيا .

كانت بيننا فُسحة تمكن بهائمه من أن تمر متى شاءت ؛ فقد كان يكره أن نُضَيِّق عليها أو أن نؤذيها .

وبهائمه ناقة حمراء مكحولة العينين مغربية يرجو أن يخرج منها خلف يرث جمالها ،وجاموسة سوداء قرناء أليفة - كانت تحبنى وتضع لى رأسها لأركب فى غفلة من جدى - تركها صاحبها النصرانى عنده شركة غير أنه لم يكن يسأل عنها ، وحمارة بيضاء أصيلة حمّالة أذى صبور لو كانت تدرى ما الشكوى لأثارت علىّ الثَّقَلَيْن ، ونعجة بلقاء مِتْآم خير خلف بقى من سلفها الثلاثين التى كان جدى يرعاها غنّامًا يجوب الأرض غير عابئ بسَهْل ولا حَزْن إلا أنْ يَملّه ، وكلب أَرْمنتىّ ، أسود يخدع منظرُه الأليف ثم يفجع جوهرُه العنيف المخيف ، ذكىٌّ يفهم عن جدى بالإشارة ما ربما لم أفهمه ولا بالعبارة !

كان مربض الناقة بناحية من الدهليز ، ومربض الجاموسة والحمارة العزيزتين بالزريبة ، ومربض النعجة بجانب واجهة الدار ، والكلب جَوّال بين المرابض .

– كنت أركب الجمل وهو يجرى ، كانت بى قوة جمل ... تعرف البحر ؟

– أجل وأخافه !

– مررت على جسره مرة ولم يكن ثَمَّ إنسىّ ولا جنّىّ ، أَلْكُمُ وجه الأرض المغبرّ بظهرِ مداسى ، وأنشق الهواء ثم أزفره ضاربًا بعضه ببعضه ، فإذا صوت امرأة تصرخ ، فأقبلت عليه فوجدت شابًا فتيا وراء امرأة كانت غسلت مواعينها بالبحر ، كأنه يراودها حتى لقد يتناول بعض ثيابها ، وكأنها تقاتله حتى لتكاد تضربه ببعض مواعينها صارخة :

– أما هنا من رضع لبن أمه ... يا ناس الحقونى !

– أنا رضعت لبن أمى ، وقد أحسنت رضاعى ...

ثم تناولْتُه – قال جدى – فكأنه ميتٌّ فى يد مُغَسِّله ، واجتمع ناس فكان يقيموننى به ويقعدوننى به حتى كاد يبادرنى إلى حتفه .

– يا لها قوةَ شَهْم لو لم يَشُبها إعجاب بالمرأة !

– ويلك ! هذا خداع ورياء ، ولم يكونا فى غنّام مثلى يقضى عنفوان شبابه خاليًا إلا من الغنم الثلاثين الغريرة ، والأرض القفر ،والسماء الصافية ...

بنت يا نادية ، جهِّزى أعواد الذرة أمام الناقة ، واحملى أوراقها إلى الجاموسة ، واخلطى للحمارة التبن بحب الذرة ، وانظرى هل لدى النعجة العزيزة ما يغنيها ؟ وهذا الكلب لم تهملونه ؟ رحم الله زمانا لولاه فيه معنا لضعنا !

الشاى يا مبروكة ...

كانت للدكتور عزبة يئس من أن يستفيد منها مالا أو ثمرا ، فهناك

عاثت فى الزمام عصابة سوء، وضع الناس لها خدودهم وطأطأوا رؤوسهم.

وكان الدكتور قد سمع بى فأرسل يستعملنى على أرضه أحرسها له، وكنت قد سمعت بتلك العصابة، فكأن الدكتور قد أصاب ما أراده قلبى؛ فلم أكن أهنأ بلذة الأمان والراحة وأولئك الجبناء طلقاء يصرفون أيديهم كيف شاؤوا.

سهرت ليلةَ أوّلِ حراستى، فأحسستُ لسور الحطب الذى يُطِيفُ بالأرض صوتا فعلمت أن شخصا يحاول اختراقه، فراقبته وتبعته حتى إذا جاوز إلى أرضى أهويت على قفاه فملكته مُحْكِمًا خناقه فصرخ فَجَرَرْتُه إلى حيث يجتمع أصحابه، ثم لمّا اقتحمت عليهم مستنقعهم مبهوتين رفعته إليهم وزجرتهم:

– اسمعوا أيها الجُبَناء الحقَراء، هذا غبيّكم تركته ليعلمكم مبلغ ندمه لِمَا لقيه، وأما أنا فليس عندي إلا أنه إذا عَنَّ لى أحدكم أو توهمت أنه عنّ لى، فسأقطعه حتى لا تلتقى قطعة من جسده بأخرى.

– جدّى، وتركوك؟

– يا مسكين، الشجاعُ مُوَقّى، بل رحلوا من الزمام كله، واطمأن الناس والدكتور ووجدت عندئذ طعم الأمان والراحة.

آه على تلك الأيام...

الشاى يا مبروكة، الشاى يا وليّه...

ألا تعلم أننى عملت خفيرًا فى «عُمُوديّة» جدّك لأمّك الشيخ مبروك؟!

– قد علمت أنه كان عمدة متعلمًا محبوبًا.

- لقد حكم بى هذا البلد فانقطعت شكاية الفلاحين ؛ كنت إذا عدا أحدهم على أخيه ربطته إلى تلك النخلة الطويلة هناك ، وضربته حتى يرحمه المعتدَى عليه ...

كان جدك حكيمًا وكنت يده التى يردع بها ، وما كنت أرضى أن أكون يدًا لغيره ... أجل ، كانت بى قوة جمل ، كنت أركب الجمل وهو يجرى .

الشاى ... أنت يا وليّه !

- مالك - قالت جدتى مبروكة - ألَنْ تنتهى عن هذا النداء ؟ ألم نحجّ معًا بيت الله ؟ وأنت ، تُراك صدقت هذه الحكايات الجديدة !

أنا معه منذ ستين سنة ، فمتى كان ذلك ؟!

* * *

# هزَّةُ الذِّكر

هناك فى إحدى (حوارى) (دسوق)، برز فتى سوى الحال مائل إلى الوسامة، ثم تبعه غلمة من أبناء تلك (الحارة)، فلم يعبأ بهم، غير أنهم صاحوا فيه: (سعاد !)؛ فشذت حاله ومال عن وسامته، فلما رأوا ذلك منه تصايحوا: (سعاد .. سعاد .. سعاد ! ..)، فقبح وطار صوابه وكر وفر، ثم كان هذا دأبهم معه حتى غابوا جميعًا عن عينى، فسألت صهرى الذى كان معى آنئذ - وهو من البلد - عن الفتى، فعلمت أن له شأنًا وقصة معروفة - وأحسبها أليمة - مع (سعاد) وهى فتاة إذا ذكر اسمها تحولت حاله !

آه أيها المسكين !

لم ترض بأحوالهم حتى تعلقت بأسماء حبائبهم !

ما أحسبك تعرف كعب بن زهير القائل:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

غير أن صاحبًا لنا ربما عناك بقوله:

إذا نادى المنادى باسم لبنى عَيِيتُ فما أطيق له جوابا

وربما قلت لى: هذه حال هينة، واستحسنت حال مجنون ليلى الذى حج به أهله يستشفون له، فسمع مناديًا ينادى: ليلى، فخر مغشيًا عليه !، ثم لما أفاق قال:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائرًا كان فى صدرى

على بعد ما بين (دسوق) و(خَيْف مِنى)، وزمانك وزمانه !

آه أيها المسكين !

ما أصدق حاليكما ؛ إن مثل قلبيكما عند ذكر الحبيب كمثل الطائر يفزع فيثور فيهرب ، أو يصيبه مطر فيثور ليطرحه عنه ؛ فلذا صدق القائل :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

إن مثل قلبيكما فى صدريكما ، عندئذ ، كمثل ذلك الطائر سجينًا يحاول فرارًا . وهكذا كان القوم ...

سمع أحدهم ذكر حبيبه فهام على وجهه فلم يستطيعوا إليه سبيلا ، وخَرَّ غَيْره مغشيًا عليه ، ثم لما أفاق ستر حاله وتركهم يظنون به المرض .

إنما فرق ما بين قلبيكما - أيها المسكين - وقلوب القوم ، ساكنها ، وإنه لفرق !

قال الحبيب سبحانه : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ .

* * *

# حاسّة النَّقْد

أصدر الدكتور أحمد درويش سنة ثلاث وتسعين كتابه «الكلمة والمجهر: دراسات فى نقد الشعر» وفيه ذكر قول بعض العجم فى وجوب توفّر ما يمكن أن يسمى حاسة أنف كلب الصيد، للناقد كى يحسن اقتناص الملامح المميزة.

وعندما بلغنى هذا، قلت له ونحن فى قاعة عميد كلية دار العلوم، ننتظر حضور الدكتور مفيد شهاب رئيس جامعة القاهرة لنبدأ أسبوع احتفالنا الثقافى بذكرى ميلاد على مبارك باشا مؤسس دار العلوم، وكان حاضرنا الدكتور محمد حماسة - فى زيارة عجلة مقتطعة من زمن إعارته إلى الإمارات العربية - والدكتور حامد طاهر - وهم الثالوث الخرافى! - على مَسْمَع من صديقيه وأستاذىّ المذكورين: لا بد من بيت شعر يرفع من شأن أنف الكلب كما رفع الحطيئة من شأن أنف الناقة!

فابتسم، وضحك الدكتور حماسة كثيرًا، ولم أكن أعرف ما يكن الدكتور درويش، غير أنه فيما بعد - وكنت مرافقه أنا وبعض تلامذته فى سيارته الفاتنة - أنشدنى شطر بيت فى تلك المسألة، كان:

«أَنْفُ كَلْبِ الصَّيْدِ زِينَتُهُ»

فى هذه الصورة الرائقة من بحر المديد التى سهّلها للناس أبو الخطّاب ثم أبو نُوَاس، جاعلًا (زينته) خبر الأنف، وقال: أَجِزْ! فقلت:

«أنه فى التوّ يكتشفُ»

جاعلًا (زينته) مبتدأ ثانيًا خبره المصدر المؤول! فابتسم لهذا...

ثم لفنا دَهْر لقيته بعده يهم بصعود سلم الكلية المواجه لبابها، إلى

حيث مكتبه، فلما رآني، قال اسمع يا سيدى :

أَنفُ كَلْبِ الصَّيْدِ زِينَتُهُ فإذا قَوَّمْتَ فاحْترِسِ

- قلت : وهو كما ترى مصِرٌّ على خبرية (زينته) -

إنْ يكُنْ مِنْ ناقِدٍ حَذِقٍ يَتَغَيَّا لَمْحَةَ الخَلَسِ

دُونَما أنفٍ ليُرْشِدَهُ أيْنَ يلقى مَرْبِطَ الفَرَسِ

فَبَعِيد أنْ يَلينَ لَهُ غَيْرُ صَوْتٍ مَيِّتِ الجَرَسِ

وبعِيد أنْ يُطاوعَه غَيْرُ زَهْرٍ ضامرٍ يَبِسِ

لَيْسَ يُجْدِى ناقِدًا زُكِمَتْ أنْفُهُ ما اختَطَّ فى الطُّرُسِ

أنشدنى بعضها فى ذاك المكان، وكان مُواقِفَنا بعض تلامذته كذلك، ثم أتمها فى مكتبه، فكان أن شهِدنا وسَمِعَها الدكتور صلاح الدين رزق، فكتبتها على ورقتى تقويم، ثم ودّعته وخرجت، فاستزارنيه - وهكذا أهل دار العلوم - وكانت فَرَطَتْ نَوى كريهة.

* * *

# عبد الله النُّباحيّ

## ديوان النُّباحيّ : دراسة وتحقيق

لديوان مُتَخَيَّل من الشعر العربى القديم

للدكتور حامد طاهر نائب رئيس جامعة القاهرة

الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ هجرية = ١٩٩١م بنشر مكتبة الآداب بالقاهرة

قال محقق الديوان فيما اختاره للبيان الذى يكون بظهر الغلاف : « النباحي أحد كبار الشعراء المجهولين . عاش حياة حافلة بالصراع اليومى مع كل المشكلات المزمنة . فى عالم يموج بالقتلة والمطحونين . اجتمعت فى شخصيته كل المتناقضات السيكلوجية ، وانعكست عليها كل الأخطاء السوسيولوجية ، ولم ينجح فى إنقاذه أي من المناهج البيداجوجية . ظل ديوانه الفريد حبيس مكتبات العالم لأكثر من ثمانمائة سنة ، حتى تم العثور على مخطوطاته الثلاث ، واستخلاص نصها المحقق لأول مرة . يفتح نشر ديوان النباحى بابًا جديدًا فى الأدب العربى ، ويدعو الدارسين لإعادة النظر إليه فى ضوء جديد ! » .

حدثنا مولانا أبو مذود ، قال : « أبلغوا النباحى أنه أشعر البَعْكوكيين » !

قلت : نسبه مولانا فى كلمته هذه الجامعة إلى أهل مجلة البعكوكة المصرية البادئة صدورها سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وألف للميلاد ، وكانت ضاحكة مضحكة كما قال رئيسها الثاني عبد الله أحمد عبد الله ، وسُخْرة سُخَرَةً كما أقول أنا .

ولن تستطيع أيها الباحث العزيز ، أن تَرُدّ كلمة مولانا ؛ إنك تجد النباحي لم يشغله توقع الموت عن أن يقول :

أُحسُّ وقع النهايه يطوي فصول الروايه
وعن قريب ستهوى من المعاقل رايه
وربما قال قوم : قد عاش من غير غايه
وربما قال قوم : قضى شهيد الغوايه
دع الجميع وأسرعْ فالشاي في الغلايه

كما لم يشغل الاجتماع الرسمي الكبير الدكتور مصطفى رجب البعكوكى عن أن يقول :

« رحتُ في الصبح إلى الشُّغْل بنفسٍ مُشْ تمام
فإذا اليوم اجتماع بالمديرين العِظام
كلهم بالعطر مغسول ولِبْلِبْ في الكلام
فإذا خلّص شخص غيره في التوّ قام
وأنا أنظر حولي في وجوم وانسجام
فإذا أكبَرُهُمْ سِنًّا على الكرسي نام »

وقد عارض النباحي أبا نواس فقال :

« كنْ عنيفًا كحسام وامض في رأس اللئام
وتكلم ... إنما العزّةُ في سيف الكلام
تعِس الصامت يحيا هملا بين الزحام
وإذا مات فبغل مات من طول اللجام »

كما عارض محجوب محمد موسى البعكوكى امرأ القيس فقال :

« قفا نبك من ذكرى خروف مُشكّلٍ أكلناه في يوم سعيد وفُلِّي
وقد مر عام بعد عام وما لنا طعام سوى هذا الكتيب المُشَنْدَلِ
وهل غيرُه هذا المسمَّى مُدمَّسًا يُصيِّر عقل المرء فردة صندل »

ولا يكاد محقق شعر النباحى يخالف طريقته ، فهذا هو يختار

لمصادره هذه الأسماء : « طبقات الفحول والحلاليف » ، و« العقود والأقراط » ، و« وفيات الأموات » ، و« القطائف في عصر ملوك الطرائف » – وأحسب أنه استوعب هذا المصدر في ليل رمضان – « وإبعاد النقص عن أهل الرقص » ، بل يرجع إلى بحث أوربى بعنوان « شَلَقْتيشن » ... إلخ .

ويختار للأعلام هذه الأسماء : « ابن البكّاء العبسي » ، و« الحصّار » ، و« الفالوذجي » ، و« زند الدولة » ، و« الشيّال » ، و« السلائطيين » ، و« الصّنجهاني » ، و« مسعودًا الأطرش » ، و« الصّرمّاح الهجّاء » – من الضرب بالصّرْمة – و« رمح الدولة الشمخاني » ... إلخ .

وهو يستعمل النحت والاشتقاق وغيرهما لابتكار أسماء توحي بالمعنى الساخر ، وقديمًا أولع بمثل هذا أبو تمام ، وحديثًا وضع إليوت أسماء قطط ديوان القطط المعروف له ، مراعيًا فيها معناها ، ولقد يُذكّرني ابتكاره في تسمية الكبار « زند الدولة » ، و« رمح الدولة » ، بما علق به ابن حزم في كتابه « نقط العروس ٢/١٠١– ١٠٢» على الألقاب الطنّانة ، قائلًا : « انخرق الأمر واتّسَعَ ورَذُل جدًّا ، حتى سُمّي بهذه الأسماء في المشرق والمغرب السماسرة واللصوص والأنذال ورذالات الناس وتطايب الناس بذلك حتى لَعَهْدي بالعامة تُسمّي رجلًا من أهل قرطبة ... أمل الدولة ، ليُري الله عباده هَوان ما تناحروا عليه وباعوا دينهم وأخلاقهم » .

وربما ذكرت قول القيرواني :

« ألقاب مملكة في غير موضعها كالهِرّ يحكي انتفاخًا صولة الأسد »

غير أنني لا أُخلي عمل المحقق من شَبَه عمل البعكوكيين حين ذكروا : « حنفي الكرمبة » المدرس الفاشل ، و« أم سحلول » الماشطة ، و« الدكتور مكسوريان » مدعي الطب ، و« صاحبة الصّون والجفاف » العجوز المتصابية ، و« المشعلقات الفكاهية » ، و« تخاروف العيد » ،

و« بذكّرات بُطْرِب بَزْكوب » ، و« تناتيش » ، و« الأُدباتي » ، بل « مشكاح الصّرماح » مدعي الضعف ، وهو اسم استعمله النباحي وترجم له السيد المحقق !

وتستمر سخرية المحقق في تفاسيره الساخرة بسوى المعهود ، كما في تفسيره « الهَجْص » بالكلام الفارغ ، و« ضارب » بغير المنضبط العقل ولا المنطقي التفكير. كما فسر الدكتور مكسوريان البعكوكي صعود الحواجب وهبوطها في حركة بصبصة مستمرة ، بأنه دليل على حيويتها ، وفسّر « ميّة اللّفْت » بأنها من أحسن الأدوية الطبيعية لنظافة المعدة ، وخصوصًا إذا كانت « مية لفت شِمال » !

هذا هذا ، غير أن للنباحي خلال شعره ذلك ، شعرًا عاليًا ، كقوله مادحًا :

« تؤرقه في كل ليل كواكبه ويصغي له التاريخ ، والمجد صاحبه
يفكر في الجلّى فيطلع شمسها ويقدم كالضرغام ، لا شيء حاجبه »

وكقوله راثيًا :

« فاتركوه لقبره إنما القبر متكا
وأفيقوا لحالكم حيث يُشتحسَن البُكا »

كما أن للمحقق مثل ذلك تعاليق فخمة يعلقها وقد علاه جد البحث ذاكرًا شعراء العرب والعجم واصلًا ما صنعوه بما صنعه النباحي ، أومنبّهًا على مواطن صالحة لبحوث الدراسات العليا . فكلا الشاعر والمحقق - وهما شخص واحد - خالف طريقة البعكوكيين هنا ، وإنما ذاكم - فيما أحسب - لتسويغ ما كان في أكثر عملهما من لين مقصود سُخْرية ، فهذا على أية حال عمل ليس من البعكوكيين وليسوا منه ، عَنَيْتُ تحقيق التراث.

فمم يَسْخَرُ أستاذنا إذن ؟

أمن علم التحقيق الذي لا قيمة له عنده، وقد نقده نقدًا أسود لا بياض فيه ؛ إذ فيه يختار طالب سفيه جاهل شعرًا ركيكًا ضعيفًا ليضبطه ويشرح بعض ما فيه شرَّ ضبط وشرح، ويقدم له بمقدمات متهاوية يلوك فيها كلامًا مكرورًا ؟!

أم تراه يسخر من عصرنا على جهة التمويه، راغبًا في أديب ينبح مساويه وفساده ومفسديه، كما فعل النباحي ببعض القادة المزيَّفين، والعلماء المُتَشدقين، والأدباء المتفيهقين ؟!

لا جَرَمَ، من الخير لنا وله أن يكون من هذا كله سخِرَ، والسخرية باب من الأدب صعب لا يستطيعه أديب، إلا أن يعلو فنُّه ويعظم ظرفه، وأَحْسَبُ أنّ بين جنبي أستاذنا قلبًا سُخَرَةً شديد البأس !

وأعظم أشكال السخرية في هذا العمل هذه المفارقة الحادثة حين يهجم قارئٌ على ديوان النباحي الشاعر القديم، المحقق من الدكتور حامد طاهر، فلا يجد شيئًا مما فيه فكر وقدر، لا في مقدمة المحقق، ولا في المصادر والأعلام والأماكن، ولا في شعر الشاعر، ولا في شرحه !

هذا هذا، فهل يأذن لي أستاذي بأن أُعينه على إتمام السُّخْرية ؟!

إذن أبدأ بنثر وأختم بشعر :

**أول** – تلقيبه بالنباحي أقرب إلى السّب والشتم.

**ثان** – كيف للنباحي أن يضحك ابن البكاء، ولو بألف قصيدة ؟!

**ثالث** – هلا بينت لنا – وقد جعلت ترجمة النباحي في طبقات الفحول والحلاليف – أمن الفحول هو أم من الحلاليف !

**رابع** – كيف يكون «إبعاد النقص عن أهل الرقص» مرجعًا

للطرب ؟ أرى أن تجعله « درء الشغب عن أهل الطرب » !

خامس – عمود الشعر لا يعني التزام البيت ، بل يعني التزام بناء فني معنوي خاص .

سادس – ذكرتم أنه لا يكاد يبرح عمود الشعر إلا في بعض الأوقات العصبية التي تفرضها عليه حاجاته الطبيعية ، وما هذا إلا لتسويغ تغير القافية في قصيدة المجذوب .

سابع – لم تُشر إلا إلى انتفاع الأوربيين بأموال طالبي المخطوطات والكتب المسروقة ، وأحسب أن أعظم انتفاعهم كان حجبنا عن تراثنا وشموخنا وتأخير نهضتنا بسرقة وسائلها التي استفادوا منها تقدُّمهم وبقي لنا تأخُّرنا .

ثامن – « الاستوائيّة » نسبة إلى المصدر « استواء » لا إلى الفعل « استوى » .

تاسع – رأس الدّبّوس غير مُذبَّب ، إنما المذبب ذَنَبُه !

عاشر – كانت لكم تفاسير غير معهودة قُصد بها السُّخرية ، وقد أشرت إلى بعضها ، غير أنني وجدت لكم ما لا سخرية فيه كتفسير « ضربُ لازب » بالصُّدْفة ، وإنما معناه الحتم واللزوم .

حادى عشر – خالفتم طريقة اللغة بقولكم – « قَزْمَز » ، وهو « قَزْزَم » ، والاسم « قُزْزُوم » ، وهى « قَزْزَمة » ، إلا أن يكون قلبًا مكانيًّا لا أعرفه ، وبقولكم : « دُمُّل » ، وهو « دُمَّل ودُمَل » ، و« صِنْج » ، وهو « صَنْج » , و« البَهر » ، وهو « البُهْر » ، وبقولكم : « ما لقلبى وذلك الكَدَرُ » ، وهو « الكَدَرِ » ، و« مالك والحكْمُ » ، وهو « الحكْمِ » ، و« ظَلَلْتُ » ، وهو « ظَلِلْتُ » ، و« شَمالا » وهى « شِمالا » ، و« العُتْب » – مرتين – وهو « العَتْب » ، و« الغِواية » ، وهى « الغَواية » ، إلى آخر ما

أشبهه، وقد تركت ذكر ما هو أثر عجلة المراجعة، فلم يكن الشكل آليًا بل يدويًا .

**ثاني عشر** – رغم ذلكم التحدى العروضىّ بالنظم من المنسرح – وما أحسب المتحدّى غير الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم – وقعتم فى كسر الوزن بتشعيث آخر صدر الخفيف فى غير تصريع (ص ٧٣)، والخروج على الوزن بالزيادة عليه (ص ٧٤) .

**ثالث عشر** – لِمَ لمْ تعلّق على قول النباحى :

« يطوي فصول الروايه »

وهو دال على أن العرب أسبق إلى فن الرواية فى شكلها الحديث ؟!

**رابع عشر** – أين رسائل النباحى التى وعدت ؟

إذا عزمتَ، فاجمع إليها ما أقول لك :

« وأنا أستطيع أنْ أَسخَر لك ممّا تشاء، غيرَ مُضْطرٍّ إلى بُنيّات الطريق، ولا إلى كلام العامّة والشُّطّار والعيّارين :

يغلب الجدَّ والمُزاحَ مُزاحي مثلما يغلب النُّباحَ النُّباحي
هو كان المصباحَ في دُلْجة الوهم وعونًا على طباع القِباح
شاعرًا لم يكن على أنّ فيه آية الكَوْن والنفوس الصِّحاح
ثائرًا ساخرًا على أنّ فيه عُجْمة السِّند واختلاق نُباح
وأنا تِرْبُه الطُّموح الجموح الرّاكبُ البحر في سراب البطاح
غير أني ربيب شيحٍ وقيْعٍ بَدَويٌّ من الطراز الصراح

والسلام « من رسالة أبي مذود إلى رصيفه النباحي » .

* * *

# سلام عليك

كنتُ لك كما لم تكن لتمام حسان
فأفسد بيننا شيطانٌ أى شيطان !
أكلونى لديك ولم تُذْركنى
فسال على الصفحة البيضاء دليلًا دمى !
رضيت عنى بعيدا ،
ثم غضبت علىّ قريبا ،
فما عدا مما بدا ؟!
أهى سيرة الأَشْباه
– ولاسيما أنك الذى شرفتنى بهذا فى بعض ما رُوى لى عنك ؟ –
أم تفاسير الوُشاة
– ولاسيما أن لها بظهرى جروحًا ،
وبوجهى مسايل دمع ،
وبقلبى اضطرابًا مُغْلَما ؟ –
ينفى أولَ الأمرين سعةُ صدرك ورجاحةُ ثقتك بما لله عندك من نِعَمٍ اختصك بها .
وينبغى أن ينفى الآخرَ علمُك القديم بى .
لم يشغلنى عنك وُفورُ مال ولا فراهةُ مقام ولا رفاهةُ عيش ،
لا ولا بَديعُ ما أبتكره لتلامذتى منهج تعليم واختبار ،
لا ولا غريب ما أُجابه به مستمعىّ بُنْيانَ محاضرة عامة فى نقد الشعر ،
لا ولا طريف ما أسلكه سبيلا إلى نقد القصة القصيرة ،
لا ولا أبى ما أطلبه من علم وفن ؛

فأنت أنت ،
أنت فى ذلك كله الصوت ،
وأنا الصدى ،
أحملك بين جنبىّ ،
أردِّد ذِكْرك فى أرجاء هذه المهامه المدلهمة
أتجمّل بك أتجمّل بك أتجمّل بك !
أهكذا تُرى يجيب أبو حاتم ذلك السؤال ،
ويصمت عن هذا الجواب ؟
أوَهكذا يثورُ ،
يعبِسُ
يبسِم ؟
أترى يهب كلامى هذا المصطفى ،
قبولَه المرتجى ،
ثم جوابه الشافى المجّتبى ؟
ربّما ؟
أنا صَريعُ ( ربّما ) !

* * *

# عبد الله البَرَدُّونيّ

(١) للبردوني - رحمه الله! - بضع عشرة مجموعة شعرية، بدأت رحلة صدورها سنة إحدى وستين وتسعمائة وألف للميلاد، وحالت وفاته في سنة تسع وتسعين وتسعمائة وألف دون غايتها. من ثم أعتمد في رؤيته على سابق قراءتي للتسع الأولى منها التي حصلت لي، ثم على النظر الحاضر في مجموعته الثامنة «ترجمة رملية لأعراس الغبار» الصادرة سنة ثلاث وثمانين، بعد أربع سنوات من المجموعة السابقة لها، وقبل ست عشرة من وفاته، أي في زمان فورة نهجه الجديد وأوج اضطرامه.

## رسائل البردوني

يبث البردوني في شعره ثلاث رسائل متداخلة: القومية، والوطنية، والاشتراكية، بادي التعصب في الأولى والثانية، والسخط في الأخرى، دون أن يخرج في أي من ذلك عن العُرْف إلى النُّكْر.

(٢) حينما يقرأ لأمته الكف يعجب:

«هل هذا الجاري مفهوم يبدو مجهولاً معلوم...
أدري أني محتل وأرى فوقي خيل الروم
أدري لكن ما الجدوى من علمي إني موصوم
هل يبنيني إدراكي أني من أصلي مهدوم
هل يشفي من أزماتي ترديدي إني مأزوم»

ص١٥٧، ١٦٩

وحينما يسرد علامات العالم المستحيل يقول:

«قيل تنشق بذرة عنه يوما قيل تدمي البروق عنه السحابا

ربما كان تحت حزن الدوالي وقريبا يجتاز ذاك الحجابا »

ص١٨٧

إنه يرى في كف أمته تهاويل لا تصدق، وهي قائمة واقعة بها، يعلمها كل من ينتمي إليها، كما يعلم أن علمها وحده غير مجد شيئا. وربما حمله على استعمال ذلك القالب في بناء قصيدته، ما يبدو عليه ابن هذه الأمة العالم بواقعها الحزين، من عدم مبالاة به، وكأنه يتوهمه ولا يراه، غير أن الشاعر لا يملك إلا أن يطمح إلى واقع سعيد وإن بدا مستحيلا.

(٣) وحينما يسمر مع أم ميمون بحكايا مفاخر اليمن يقول:

«آباؤكم كانوا أعز على ذهب المعز وكل ما يغوي

ماذا أقص اليوم كم سقطوا والموت لا يغفو ولا يثوي

كان الصباح كأنف أمسية كان الدجى كالملعب الجوي

والآن هل ألقى معازفه زمن الأسى كي يبتدي شدوي

وتنحنحت كي تبتدي خبرا فبكت فغاص أمر ما تحوي

حدث الذي والدمع يسبقها ويقول عنها غير ما تطوي »

ص٢٢٨-٢٢٩

إنه يمجد زمان البطولات العزيز السالف، ويريد أن ينعم بعاقبته الواقعة غير أنه لا يستطيع أن يخدع نفسه، فالواقع اليمني كالواقع العربي، حزين.

(٤) وحينما يتفقد حوادث هذا الواقع اليمني العربي، ويتسمع إلى صخب دعوات أبواقه المزيفة وشعاراته الطارئة الجوفاء، يراها أعراس غبار لا أصل لها، رحى تطحن قرونا- كما قال المعري في مثلها- فيقول:

« يا ريح هل تعطين غير قش من أين تاريخ الركام بعلي

غدا تراني أستهل عهدا لأنني ضيعت مستهلي
في القلب شيء يا زمان أقوى لا تنعطف من أجله وأجلي
أحب ما تولين من عطايا يا هذه الأيام أن تولي »

ص٣٠

فليس ثم عطاء إلا الوهم، ولا اشتراك إلا في العدم بالغنى وبالفقر جميعا ؛ إذ لا قيمة لغنًى مُبْطِر ولا لفقر مُقْعِد.

(٥) ولقد كان من آثار عصبيته القومية كثرة استعمال مفردات الثقافة العربية، أحداثا وشخوصا وعلوما وفنونا ؛ فهي متغلغلة في قصائد المجموعة التي تنوب عن المجموعات الأخرى أحسن نيابة، حتى إن الشاعر يخص ذلك أحيانا بالقصيدة حين تصلح المفردة الثقافية العربية، رمزا خالدا لقضاياه الثلاث السابقات ، كما فعل في قصيدتيه « وردة من دم المتنبي »، و« تحولات يزيد بن مفرغ الحميري »، يقول في الأولى:

« شاخ في نعله الطريق وتبدو كل شيخوخة صبيً مدلهما
كلما انهار قاتل قام أخزى كان يستخلف الذميم الأذما
هل طغاة الورى يموتون زعما يا منايا كما يعيشون زعما
أين حتمية الزمان لماذا لا يرى للتحول اليوم حتما
هل يجاري وفي حناياه نفس أنفت أن تحل طينا محمى ...
التعاريف تجتليه وتغضي ألتناكير عنه ترتد كلمى
كلهم يأكلونه وهو طاو كلهم يشربونه وهو أظما
كلهم لا يرونه وهو لفح تحت أجفانهم من الجمر أحمى
حاولوا حصره فأذكوا حصارا في حناياهم يدمّي ويدمى
جرب الموت محوه ذات يوم وإلى اليوم يقتل الموت فهما »

ص٥٦، ٦٠-٦١

يبرز المتنبي في القصيدة فارسا متحققا بمعنى الفروسية، عالي الهمة، طامح الأمل، شديد الأنفة، يريد الجليل الأسمى لأمته ووطنه ونفسه، ويضيق بالحقير الأدنى، المستولي على أمته ووطنه ونفسه، فيشذ عن الخضوع له غير عابئ بما يصيبه من تضييع وتقتيل، فيضيِّع هو نفسَه تضييعَه ويهتدي، ويقتِّل هو نفسَه تقتيلَه ويعيش!

ومن عصبيته القومية وقوفه في شعره عند العمودي ، فلم يتجاوزه إلا في قصيدتين من سبع وثلاثين، استعمل المشطر في الأولى- وهو نمط من التجديد العروضي قديم- وتعديد القافية في الأخرى، ثم استعمل عشرة بحور، لبعضها عنده أكثر من صورة، ثم استعمل في روي القافية واحدا وعشرين حرفا من حروف المعجم بين المعروف بكثرة الوقوع رويا كالراء والميم واللام والنون، والمعروف بقلته كالكاف والشين والواو والهاء، والمعروف بندرته كالطاء والغين والثاء والذال.وأنا لا أخلي ذلك من أثر عماه.

لقد انقسم الشعراء منذ قديم طوائف أغرت العلماء بالنظر إليهم من جهتها، عسى أن يكون لها في شعرهم من أثرٍ وجَّههم إلى ما اتجهوا فيه إليه، فدرس لويس شيخو شعراء النصرانية، ودرس بعض أصحابنا شعراء الدعوة الإسلامية، ودرس الدكتور عبده بدوي الشعراء السود، ودرس الدكتوران عبدالحليم حفني ويوسف خليف كل على حدة، الشعراء الصعاليك، ودرس آخرون الشعراء اللصوص، ولا تقل طائفة العميان عن تلك أهمية، بل ربما زادت عليها ؛ إذ الصورة التي أصابها عماهم، موطنُ عبقرية الشعراء. والحق أن للجاحظ رسالة طريفة في البرصان والعرجان والعميان والحولان، ربما استطرد فيها إلى ما يفيد في ذلك.

لقد أستطيع أن أقول معتمدا على سابق اطلاعي على شعر الأعشَيْن

وبشار والعكوّك والمعري والحبسي العماني والبردوني اليمني، وعلى شعر بعض من عاصرت من العميان، إن هذه الطائفة أشد تمسكا بالعمودي ومبالغة في الأخذ به، على رغم أن التجديد حولهم من قديم وقد اطلعوا عليه، ولا ريب في أن لعماهم أثرا؛ إذ يتوفز سمعهم ويتعلق بما ألفه.

(٦) ولقد كان من آثار عصبية البردوني الوطنية كثرة استعمال مفردات الثقافة اليمنية، أحداثاً وشخوصا وعلوما وفنونا متغلغلة في قصائد المجموعة على النحو السالف في آثار العصبية القومية، نفسه، فالرسائل متداخلة كما سبق أن ذكرت، غير أن الأمر هنا أشد وضوحا لشدة حضور الوطن الخاص والأهل، بالقياس إلى الوطن العام والأمة. وليكف دليلا أن البردوني حينما تحدث عن قصائده في قصيدته «الصديقات»، قال:

«هن أنى ذهبن وجه بلادي جئن عنه وجئن منه اختصارا
أي أسمائهن أشذى نثيثا أي أوصافهن أشهى ابتكارا
قد أرى هذه تعزا وتبدو تلك صنعا هاتيك تبدو ذمارا
تلك تبدو بيحان هاتيك إبا تلك لحجا هذي تلوح ظفارا
قد أسمي هذى سعادا وأدعو هذه وردة وهذي النوارا
هن ما شئت من أسام وإني كيفما شئن لي أموت اختيارا»

ص١٢ -١٣

إنه يرى في قصائده معالم اليمن، لأنه يرى في معالم اليمن قصائده، تخرج القصيدة مبنى كالمبنى أو طريقا كالطريق أو جبلا كالجبل أو مدينة كالمدينة أو فتاة كالفتاة، عفوا لا قصدا وقصدا لا عفوا لأن غايته اليمن ولأن اليمن غايته، في نمط فريد من الحلول أو الاتحاد بين الشعر والوطن. ويتصل بذلك عشقه الأمكنة الطبيعية وكرهه الأمكنة الصناعية، وكأنه

يرى الأولى خالصة لليمن والأخرى مشوبة بغيره :

فتموت صنعا وهي توقد فوق نهديها النيون
ويقال تولم للردى وتصوغ من دمها الصحون »

ص١٦

(٧) ولقد كان من آثار سخطه الاشتراكي، أن أنكر على الفقير قعوده عن حقه، كما أنكر على الغني بطره، وأن أنكر على المحكوم استكانته، كما أنكر على الحاكم طغيانه، يقول في قصيدته « زامر الأحجار »:

« موطني أدعوك من تحت الخناجز وإلى زنديك من موتي أسافر ...
موطني هل أكشف الغور أما يوجز البرقُ المصابيح السواهر ...
يرتقي العهر على العهر إلى آخر المرقى لأن السوق عاهر
ولأن الشارع الشعبي على زحمة الأهل لغير الأهل شاغر
هذه الموضات أعراس بلا أي عرس هكذا الموت المعاصر
أيها الأسواق من ذا ها هنا إنها ملأى ولكن من أحاور
ذلك الدكان يعطي غير ما عنده هذا بلا حق يناور
ذاك ماخور بلا واجهة ذاك ذو وجهين ودّيّ ونافر
كل شيء رائج منتعش هل سوى الإنسان معروض وبائر
تلك أصوات أناس لا أعي أي حرف أصبح الإسمنت هادر
يا فتى يا ذلك الآتي إلى غيره يرنو صباح الخير صابر
سنة تبحث عن بيت سدى أتعب التفتيشَ مسعود وشاكر
إن هداك البحث عن بيت إلى مقعد في أي مقهى لست خاسر »

ص١٣٧، ١٤٠، ١٤٢-١٤٤

صباح الخير شاكر، وصباح الشر ثائر، فيا أيها الفتى الوطن الصابر

على عهر سوق هذا الزمن، إن عثرت بموضعٍ لرجليك في أي مكان مبتذل، فافرح به بيتا عظيم المأوى، ولا تَشَكُ خسران الصفقة؛ فقد رضيت أن يُمنع من الحق أهله، وأن تُعشي العيونَ أضواءُ الزيف، وأن يُميَّز بعض الناس من بعض بغير حق، وأن يصير الرياء دينا، والإنسان سلعة يطغى على صوته الحي، صوت المال والجاه الإسمنتي.

## وسائل البردوني

اتخذ البردوني لرسائله المتداخلة، ثلاث وسائل متداخلة مثلها، متفاوتة الأداء هي: السخرية، والحوار، والتصوير.

(٨) أما السخرية فشرط الأدب فيما أرى، لابد من أن يشتمل شاديه على مقدار منها في طبيعته؛ فإن منزلته تكون عند منتهى سخريته. وما ذلك إلا لما تتسرب إليه السخرية من مفارقات في الحياة، هي أعمق ما يطمح الأدب إلى تناوله.

لقد فُطر البردوني على السخرية، وأشعلها لديه ضيق حاله وهو المبدع الموهوب، وسعة حال غيره من المترفين الغُلف- كما قال في مقدمة أعماله الكاملة-، وهي أول ما اطلع عليه من مفارقات، ثم زادها اشتعالا غرامه بالاطلاع على تراث الهجاء، يتعزى به- كما قال- عن الحرمان.

لقد سخر من قومه مُرّ السخرية، في قصيدته «من حماسيات يعرب الغازاتي»، فقال:

«نحن أحفاد عنتره نحن أولاد حيدره
كلنا نسل خالد والسيوف المشهره
يعربيون إنما أمنا اليوم لندره
أمراء وفوقنا عين ريجنْ مؤمره
وسكاكيننا على أعين الشعب مخبِره

نحن للمعتدي يد وعلى الشعب مجزره
كلنا سادة الرماح والفتوح المعطره
كل ثقب لنا به خبرة الديك بالذره
في الملاهي لنا الأمام* في الحروب المؤخره
حين صهيون يعتدي يصبح الكل مقبره»

ص٢٣٠ - ٢٣١

* هكذا ، وقد انكسر منه ، ولو قال : (لنا الذرى) مثلا ، لانجبر.

وسخر من وطنه مر السخرية ، في قصيدته «ترجمة رملية لأعراس الغبار»، فقال:

«أيا التي سميتها بلادي بلادَ من يا زيف لا تقل لي
بلاد من يا عاقرا وأما ويا شظايا تصطلي وتُصْلي
يا ظبية في عصمة ابن آوى يا ثعلبا تحت قميص مِشْلي
يا طفلة في أسرها تغني ويا عجوزا في الدجى تُفَلِّي
يا حلوة دودية التشهي يا بهرجا من أشنع التحلي
همست للقواد هاك صدري وقلت للسكين هاك طفلي
وللغراب البس فمي وكفي وللجراد اسكن جذور حقلي
فهل تبقى الآن منك مني شيء سوى لعلّها لعلي»

ص٢٥ - ٢٦

وسخر من علاقة الفقراء بالأغنياء والرعية بالأمراء، مر السخرية ، في قصيدته «بنوك وديوك»، فقال:

«لنا بطون ولديكم بنوكْ هذي المآسي نصبتكم ملوكْ
يا ضعفنا تبدو لهم سافرا يا ضعفهم هيهات أن يدركوك
لكم سجون ولنا عنكم تجادل مثل نقار الديوك

عنا تلوكون اللغات التي نعني سواها أي همس نلوك
ظنونكم عنا يقينية يقيننا عنكم كخوف الشكوك
لنا مناقير حمامية لكم مدى عطشى وجبن سَفوك »

ص١٥٠، ١٥٢

بل قد سخر من نفسه مر السخرية، في قصيدته « لعينيك يا موطني »، فقال:

« لأني رضيع بيان وصرفْ أجوع لحرف وأقتات حرفْ
لأني ولدت بباب النحاة أظل أواصل هرفا بهرف
أنوء بوجه كأخبار كان بجنبين من حرف جر وظرف
أعندي لعينيك يا موطني سوى الحرف أعطيه سكبا وغرف »

ص٧

فبعد أن سخر من الجعجعة العربية بالقوة والجرأة والنخوة، والمجعجعون جميعا أسرى الضعف والجبن والذل، وسخر من الجعجعة اليمنية بالأمن والحماية والرَّغَد، وما ثم إلا الخوف والأسر والخراب، وسخر من بطر الأغنياء وضعف الفقراء وطغيان الأمراء واستكانة الرعية- تفكر في نفسه وما يفعله لتغيير الواقع الحزين إلى أفضل منه، فلم يجد نفسه تجاوز الكلام، فسخر من صنعته المحدودة مهما حاول سكب الهرف بغرف الحرف.

ويبدو لي أن من سخريته، عزوفه عن العشق والغزل والتشبيب والنسيب، ولسان حاله يقول: أنّى لي وأنا السجين الحزين المسكين، أن أتطلع إلى خواطر الطلقاء السعداء ونزغات المترفين!

ومن سخريته الوثيقة الصلة بعماه، إنطاقه الجوامد والمجردات، بالفلسفة الملائمة، وكأنه يستأنس بها وهي التي تشاركه دون غيرها، حله

وترحاله، وصحوه ونومه، في حين أن الناس مهما جالسوه، منفضون عنه- لا محالة- في وقت ما.

إنه متى اقترنت بعماه وحدته، سلط عقله على ما حوله، وتلبسه، ثم جعل يتكلم عنه، فتجد عندئذ للجبل فلسفة (جبليَّة)، وللرصيف فلسفة (رصيفيَّة)، وللجدار فلسفة (جداريَّة)، ولليل فلسفة (ليليَّة)!

قال في قصيدته (حوارية الجدران والسجين):

«هيا يا جدران الغرفه قولي شيئا خبرا طرفه
تاريخا منسيا حلما ميعادا ذكرى عن صدفه
أشعارا سجعا فلسفة بغبار الدهشة ملتفه
في قلبي ألسنة الدنيا لكن لفمي عنها عفه
الصمت حوار محتمل والهجس أدل من الزفه
إطلاق الأحرف حرفتكم إخترت الصمت أنا حرفه
أو قل ما اخترت ولا اخترت طبعتنا العادة والألفه
حسنا ألديكِ سوى هذا إجهادي من طول الوقفه
من صف ركامي لا يدري أني أوجاع مصطفه»

ص١٠٣/ ١٠٧- ١٠٨

كأنه في أول كلامه يُدل بقدرته السحرية على إنطاق الجوامد بالفلسفة الملائمة، فتنطق الجدران بأنها تشتمل على أسئلة الدنيا وتعف عنها معتمدة بلاغة الصمت، ثم تبدو لها دعواها أعرض مما ينبغي، فترى الصمت طبيعتها والنطق طبيعة غيرها، فيستحسن الشاعر السجين بينها منطقها، فيستزيدها، فتبوح بتعبها من طول الوقفة، وبأن إضافة اللبنة الى اللبنة فيها، كانت منذ البدء إضافة الوجع إلى الوجع.

وينبغي لي أن أذكر أنه خطر لي كلام للدكتور إبراهيم السامرائي

سمعته منه في مجلس أستاذي أبي فهر محمود شاكر في مبتدأ التسعينيات، يصف فيه شعر البردوني بالركاكة، فرغبت هنا في بيان أنه ربما تعمد ذلك عفة منه عن دلالة الجزالة، وخشية لتهمتها، وأن ذلك من تمام سخريته التي لن تؤديها له على أقسى ما تكون، إلا تعابير صحفية أو لهجية دارجة، فارقا بين هذه اللغة وبين العروض الذي تمسك بعموديه، لتستمر في كل قصيدة المفارقة التي هي مبعث السخرية، ثم أقبلت أفتش المجموعة المختارة ذهابا وإيابا، عن شواهد لتلك الفكرة الخاطرة، فما وجدت لها شيئا، إلا أن أتكلف الحديث عن الأسماء اللهجية والأعجمية، أو الاقتباسات من الأغاني أو العبارات الخاصة اللهجية، وهو ما لا مغمز فيه ولا مؤاخذة به.

بل ازداد عجبي من البردوني، حينما عثرت بقصيدته «زَوَّار الطواشي» أي زوار الحي الصنعاني القديم ذي الحمام التركي الشهير، واستبشرت أن تشهد للركاكة شهادة عليا، لفكرتها التي ينبغي أن تجر الشاعر الساخر إلى الركاكة، فما شهدَتْ. يقول فيها:

«كان يرتاد الطواشي راكبا بغلا وماشي
تارة يلبس طمرا تارة أزهى التواشي
كان يخشى من يراه كل راء منه خاش
لي هنا حام كأهلي وحمى يبغي انتهاشي
ما لهم يكسون جذعي أعينا تحسو مشاشي
هل دروا أوطار قلبي من ضموري وانتفاشي
ألفوا الدهشة مني وأنا طال اندهاشي
جاوزوا دور التوقي كيف اجتاز انكماشي»

ص٢٠٨ - ٢٠٩

وهكذا يستمر فيها بالجزالة لا الركاكة، غير أن سهولة كلامه وتحدره وتدفقه قريبا من المتلقي ممتزجا به، يوهم من لم يطلع على حقيقة الجزالة في الكلام العربي، بركاكته.

(٩) أما الحوار فباب البردوني إلى أنس الحرية، الذي هرب به من وحشة أسر العمى والحزن والوحدة، باب انفتح له بمفتاح الموروث القليل، وبمفتاح حب التقرب من الناس، فلما انتبه إليه أولع به، حتى هدم الجدران كلها ليدخل إلى قصائده الحوار من كل جهة.

لقد كان الحوار وما زال لدى غيره، وسيلة عارضة لبناء القصيدة العمودية، فصار لديه كالسخرية، أساس كل قصيدة. وكان وما زال لدى غيره تقليديا ساذجا بقال فلان وتقول فلانة، فصار لديه عجيبا غريبا خفيا متقنا لا يدرك أحيانا إلا بفضل تفكير، حتى إنه ليرحم المتلقي عنه فينبهه إليه بالترقيم أو التحديد الصريح، ولو لم يفعل لكان أوقع وأشد تأثيرا وإعجابا. وكان وما زال لدى غيره حوارا لمن يستطيعه أو كأنه يستطيعه، فصار لديه حوارا لكل شيء مُدْرَك بأية حاسة من الحواس مادية أو معنوية، وفيما سبق نماذج صالحة لحواره لنفسه ولغيره من الناس، وللجدران، وللريح ولموطنه، غير أن في قوله في قصيدته « وردة من دم المتنبي »:

البراكين أمه صار أما للبراكين للإرادات عزما
كم إلى كم تفنى الجيوش افتداء لقرود يفنون لثما وضما
ما اسم هذا الغلام يا ابن معاذ إسمه لا من أين هذا المسمى
إنه أخطر الصعاليك طرا إنه يعشق الخطورات جما »

ص٤٨ - ٤٩

- نموذجا، لمدى خصب الحوار لديه وعظم طاقته فيه واقتداره عليه في القصيدة العمودية؛ إذ تكثر الأصوات ليختلط في هذا المضيق، صوت

البردوني وصوت المتنبي وصوت راعي المتنبي وصوتِ صاحب راعي المتنبي.

(١٠) أما التصوير الذي أصابه عمى البردوني في مقتله، فصار عنده ممتحنه الذي يجتهد له ويستنفر كل ما تسرب إليه من علم وما وُهب من فن- وكل ذي عاهة جبار- ليصنع منه ما يعلو به على غيره من المبصرين، فإذا كان التصوير وما زال لدى غيره وسيلة من وسائل بناء القصيدة أو وسيلة الوسائل التي يمكن أن تُترك إلى غيرها، فقد صار لديه مع السخرية والحوار، أساس كل قصيدة، وصار أعظم توفيقه فيه، حين يجمع بينه وبين السخرية والحوار في وقت واحد معا- وهو الاجتماع الذي يجلو الوسائل الثلاث ويرتفع بها إلى سماء الإبداع- فإذا ما فرق بينه وبينهما، صار إلى نمط من التشبيه أو الاستعارة أو المجاز، لا يخلو من طرافة، غير أنه لا يخلو أيضا من تكلفٍ مقصور.

أما النمط الموفق فقد سبقت نماذج صالحة له، وأما النمط الآخر فكما في مثل قوله في قصيدته «غير كل هذا»:

«مثلما تهرم في الصلب الأجنه تأسن الأمطار في جوف الدُّجُنَّه
يحبل الرعد ويحسو حمله ثم يستمني غبارا وأسنه
تمطر الأعماق نفطا ودما يحلم الغيث بأرض مطمئنه
يعشب الرمل رمالا وحصى يستحيل الغيم بيدا مرجحنه
ينطوي البرق على إيماضه كتغاضي عمة عن طيش كَنَّه
ينشد الحلم البكارات التي لا يعي النخاس من ذا باعهنه
تأكل العفة من أثدائها يغتدي القتل على المقتول منه»

ص١٧٩ - ١٨٠

لقد أراد أن يعبر عن فساد العالم الواقع وطموحه إلى غيره، فاحتطب بعض الظواهر، وتكلف لها بعض الصور الطريفة المقصورة العاجزة، فتمنينا

أن لو فعل (غير كل هذا)!

رحم الله سيدنا عبدالله بن صالح البردوني، أبا بصير اليمني، الذي كان نسيج وحده في هذا الزمان العربي الإسلامي المتهرّئ، وتجاوز عن سيئاته، ولم يحرمنا أجره، ولم يفتنا بعده. آمين!

* * *

# في نصوص شادٍ عماني

## ١ خِصْب الأفكار :

لقد استطاع عبد الله المعمري أن يقدم في كل قصة فكرة مختلفة ؛ ففي «ثرثرة على قبر مجنونة» ، مَكّن الفتاة من أن تكشف حقيقة الفتى المتودد إليها ، دون أن تنخدع بتودّده ، وتثبت لنفسها أولًا وله ثانيًا أنه لن يكون معها خيرًا من أبيه مع أمه ، فكانت هذه القصة نفسانية الوِجْهة ، رغم تفضيلي لأن تكون الفتاة ابنة خال الفتى لا ابنة عمته كما رأى ، لأن الأحرى بها - على كونها ابنة عمته - أن تنزه خالها عن العيب !

وفي «بداية للخطو ليوم ما رغم المسافة» ، ثارت شجوني وحضرتني صباحات لا تُعدّ ، كنتُ فيها هذا الطفل ، وكانت المرأة جدّتي ، لقد كانت هذه القصة واقعية الوِجْهة ، رغم غفلة عبد الله عن أن يتعرض لأصل ما قصده فجعله في العنوان ، أي معاني السعي ليوم مخوفٍ قادم .

وفي «الخطيئة» كان موفقًا جدًّا في الرمز إلى حقيقة ما عليه الروح من طهر أو نجس ، بالصفحة التي كأنها بيان لحالها ، فنحن نعرف فيما علمّناه ديننا ، ما سيتلقاه كل منّا من بيان لعمله كله في الدنيا ، فيجعل يراجعه ويضطرب حَزَنًا وفَرَحًا . لقد أجاد عبد الله الحديث عن تناوب الشخصين النظر في تلك الصفحة ، يتفقدان حقيقة روحيهما وما يصيبهما ، ولن يزال المحبون بخير ما تذكروا هذه الصفحة وراجعوها وقاسوا إليها حالهم ، غير أنني وددت أن لو استطاع أن يستفيد من تلقى الصفحة باليمين أو بالشمال ، هذا المشحون دلالة .

وفي «المعذبون في الفردوس» ، ضلّلني استعمال ضمائر العاقلين في

الحديث عن هذه الكائنات المعذبة بمعالم حياتها وبيئتها، ثم بدا لي أن الأمر كله يحتمل أن يدور على نمط معروف هنا من صيد بعض الصحراويات في بعض المناسبات أو الأوقات. وعلى أية حال، يظل ذلك التضليل رائعًا، دالًا على هذه القصة اللُّغزية الوِجْهة، التى تحتمل الرمز كالسابقة والواقع كالتى قبل السابقة.

**٢ ثنائية الشخصيات :**

غرام عبد الله بالإيجاز واضح، فالقصص قصيرة جدًا، ولقد كان لهذا أثره فى اكتفائه من شخوص القصة باثنين دائمًا : خالد وصاحبته فى «ثرثرة»، وسعيد وصاحبه فى «المعذبون»، والرجل والمرأة المجهولان فى «الخطيئة» وكأن تجهيلهما إشارة إلى عموم الخطيئة أو احتمال كلّ بني آدم للخطأ، والشخصان فى «بداية للخطو» هما الطفل وأمه، مجهولان كذلك، إشارةً إلى عموم العَنَاء لكثير ممن لا يُلْتَفَت إليهم.

لقد كان يكتفى بشخصين ولسان حال قصصه يقول : حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق !

إن الشخصين كافيان عنده لبناء الحوار والتمهيد للحدث، ولا سيما أن الحوار والحدث لديه منحصران داخل ما يغلب أن يكون موقفًا أو كالموقف.

**٣ شعرية التّعبير :**

لقد صار معروفًا الآن تداخل الفنون أي استعمال بعضها لوسائل تعبير بعضها الآخر وتقنياته. وإن من أكثر هذه الفنون الأدبية تداخلًا فيما أرى، القصة والقصيدة ؛ ففى حين صارت القصيدة تمتاح من القصة (وهى القصيرة)، فتستعير منها السّرد والصّراع، صارت القصة تمتاح من القصيدة التركيز والتصوير.

وحين يقول عبد الله فى «ثرثرة» :

* «غسلت فيهما الطفولة إحساس التفريق بين الذكر والأنثى» .

* «على صورة زوجها الذى رسم فيها لعبة الجنون بتصرفاته الصبيانية» .

وفى «بداية للخطو» :

* «لا تزال بقايا الليلة الفائتة عالقة بعينيه الصغيرتين يحاول الآن إفراغهما بدعكهما بقبضتى يديه» .

وفى «الخطيئة» :

* «أجابت وعيناها تتزلقان إلى نهاية طريق ضيق فى خيالها المحدود» .

وفى «المعذبون» :

* «لا يلامس آذانهم إلا بقايا (والمسلمين تكبر)» .

* «إن أكبادهم ستبقى دامية ليجففوها بضوء القمر .. القمر الذى لا يعيرهم إلا الأذن الصماء وهم لا يزالون يرمقونه بأعين حصد النوم منها» .

- ينفخ فى قصصه من روح الشعر ما يشعلها وهجًا وألقا .

٤ فَساد التعبير :

بضدها تتميز الأشياء ، فيبدو عبد الله وقد شاب ذلك الصفاء العزيز ، بنقائض تحيّر القارئ ، على مثل قوله فى «ثرثرة» :

* «أخذ من شعوره زورقًا ومن إحساسه مجدافًا» ، والإحساس الشعور ،

* «خدَّيها الورديَّيْن اللذين كانا كبياض أسنانها اللؤلؤية» ، فلم يكونا ورديين إذن ! ،

* «إننى الآن لأفقد ثقتى بكل ابن أنثى» ، والمقبول المعقول هنا أن تقول الغَضْبى : «كل ابن رجل» .

وفى «الخطيئة» :

* « وجدت نفسها هامدة وكأنها وحش يجد نفسه هامدًا بين مخالب أعدائه » ، والركاكة مضجرة .

وفى « بداية للخطو » :

* « حتى تصلها معه ليوم تنتظره بصبر جميل » ، أراد « حتى تصل » .

إن وضع هذا الفساد إزاء تلك الشعرية ، يثبت أن عبد الله لا يكفُّ عن تثقيف تعبيره .

٥ خطأ اللغة :

وهنا يرتاح عبد الله إلى ترديد ما تلوكه الأفواه والأقلام ، غير عابئ بنصيبه من الصواب الضرورى للفهم والإفهام :

فيقول فى « ثرثرة » :

« فى سنهما هذا » ، والصواب « هذه » ،

« مِزْهَرِّية » ، والصواب « زَهْرِّية » ، أو « مُزْهَر » ،

« التكسير فى كل شيء » ، والصواب « لكل شيء » ،

« أحمد الله فى شيء » ، والصواب « أحمد الله على شيء » ،

« مع معرفتك ... وأنت تلومها » ، والصواب « مع معرفتك ... تلومها » ،

« إننى الآن لأفقد ... » ، والصواب « إننى لأفقد الآن » ،

« بالأفكار الرثة والأفكار السمينة » ، والصواب « الأفكار الغَثّة » ،

« فأنا من الاستحالة ما هو مستحيل منها أن أترك جو هذا الريف » ، والصواب « فإن من المستحيل أن أترك » ،

ويقول فى « المعذبون » :

« رغم إنكسار جناحها فلتت » ، والصواب « رغم انكسار جناحها

أفلتت ») ،

ويقول فى « الخطيئة » :

« أوجسه » ، والصواب « أوجس منه » ،

« استصاغة » ، والصواب « استساغة » ،

« كقطعتين من نار حقيقية كادتا أن تحرق » ، والصواب « كادت تحرق » أو « كادتا تحرقان » ،

« ولم يجد أنسب » ، والصواب « أكثر مناسبة » ،

ويقول فى « بداية للخطو » :

« بداية » ، والصواب « بداءة » ،

« يدلف حجرة » ، والصواب « يدلف إلى حجرة » ،

« لا تزال دؤوبة » ، والصواب « لا تزال دؤوبًا » ،

« لإعداد الفطور » ، والصواب « الإفطار » ،

« استمتع مع أترابه في شيّ السنابل » ، والصواب « بشيّ السنابل » .

لقد كان عليّ أن أشتد فى تنبيهه إلى العناية بلغته ؛ لأننى إذا وجدت قاصًّا مثله من حيث فنية القص ، غير أنه أصوب منه لغةً ، فضلته عليه ، وكذلك يفعل غيرى ، فضلًا عما نكرره ولا يقتنع به بعض الناس ، من أن الأديب لغوي أوّلًا ثم غير ذلك ثانيًا ، لغته عُدَّته التى بها يعمل ، فليختر كل ما يعينه على عمله .

* * *

# فى نصوص شادية عمانية

يبدو لى أن أتراب (بدرية الهاشلية) من شداة الكتابة الفنية، إنما يميلون إلى حديث الخضوع لسيف الظلم ونار الحزن وكأنهم يستعذبون نزيف المعاناة استعذاب المتصوفة لمجاهدات التخلى عن وَضر الجسد ثم التحلى بمناقب الروح والتجلى فى مراقيها - انقيادًا من عقولهم لفتاء أجسادهم يقضى به فقه الجسد فالشباب شعبة من الجنون، ثم انقيادًا من أجسادهم لتوفز هممهم يقضى به فقه النفس فالشباب ينبوع التغيير.

على هذا تركت (آمال) تلميذتى المصرية فى (كلية دار العلوم)، لأجد (بدرية) تلميذتى العمانية فى (كلية التربية)؛ فمن بين اثنى عشر نصًّا منها ثلاثة نصوص هى عند التحقيق ثمانية، يبرز نصان صريحان فى مخالفة الروح العام: أولهما - وترتيبه التاريخى الثالث - (لا حياة مع اليأس)، فى الدعوة إلى مدافعة اليأس، يتضح منطلقًا له بيت إيليا أبو ماضى المشهور، والآخر - وترتيبه التاريخى الثامن - (بشائر السعادة)، فى استنكار غرام الناس بالحزن على رغم أنه كالظلام غير دائم، والدعوة إلى اطراح الكآبة الفاشلة المهلكة.

أما النص السابع فى الترتيب : (حسبك) الذى خُتم برفض اللوم والعتاب لما تفيض به الأكباد من حزن وكآبة مقيتين، فخادع؛ إذ الكاتبة ترجح فيه أن يكون شغفها كغيرها بالترح سبب عدم وصول كلماتها إلى أنيسها!

وأما النص التاسع : (صَرْخة) الذى خُتم بالقيام الحميد لصلاة الفجر الحانية، فقد كان السبيل إلى هذا فيه، كابوس مُفزِّع!

لقد غلب على النصوص ذلك الروح الذى قدمت أول المقال، إنها غَرْقَى بحر من التعاسة المقدرة المتعمدة - كما تحس الكاتبة - لُجِّيّ متلاطم، ظلمات أمواجه بعضها فوق بعض ؛ فمن هياج الحزن لافتقاد النُّبل متمثلًا فى صديقة رحلت أو عاطفة انكشف زيف ما تعلقت به وخداعُه، ومعاناة وحشة المكان وبغتة الزمان فى خلال ذلك، مع صعوبة الرحيل لتشابه المرحول إليه بالمرحول عنه - إلى يأس غاضب من جبرية الأقدار التى يبدو تحقيق أى حلم معها محض وهم !

يعتمد أسلوب الكاتبة على توالى الجمل القصيرة السهلة الفنية المتشابهة، بحيث تحمل كل منها دفقة شعورية جديدة ربما ناقضت ما تحمله الأخرى حين تتضارب فى نفس الكاتبة المشاعر.

وبمثل هذه الجمل تسرد الكاتبة صور مشاهد فى بداءة نصوص كثيرة، فتوشك أن تستولد قصصًا قصيرة، غير أنها لا تتجاوز مَهْدَها.

من ثم أرجو للكاتبة حظًّا طيبًا من فن القصة القصيرة، متى عكفت على نتاج كبار مبدعيها (من مثل تشيخوف الروسى وإدريس المصرى) قراءة وفهمًا ونقدًا، ومتى اعتنت بما يداخلها من الفنون الأخرى (من مثل الشعر والمسرح والسينما) وتقنياتها فى مسيرة النص الفنى القديمة الحديثة.

كان الله جارها.

* * *

# مقياس تجديد الشعر

الشعر شكل فنى من أشكال الكلام ، والفن عامته ذو أصول وقواعد يؤدى الخضوع لها إلى مجافاة التطور وكلما مر زمان طويل وتطورت الحياة تطورًا واضحًا بعد الشعر بشكله الموروث عن الناس وانتبه نفر من الشعراء إلى ضرورة إدراك الأمر قبل فوات الأوان ، فيجددون للناس الشعر ويعيدونه إلى سابق عهده قُربًا منهم وتعبيرًا عنهم ، فيسمون وحدهم المجددين ، لأن روح التجديد التى هى الوعى للحياة ، قد حلت فيهم .

وللشعر شكله ومضمونه ، غير أن مقياس تجديده إنما هو شكله وحده دون مضمونه ، لأنه الذى تستطيع حواس الدارس أن تقطع بإدراكه ، فأما مضمونه فمراوغ ؛ كلما قال دارس : لقد أراد الشاعر كذا ، رد عليه آخر : ولم لا يكون قد أراد كذا ، وهكذا دواليك .

إن لشكل الشعر جانبين متداخلين بحيث يُمكننا جعلهما جانبًا واحدًا ذا وجهين ، هما : عروضه ولغته ؛ ففى الوقت الذى يضبط الشاعر فيه عروض شعره ، يبنى لغته ، فمن ثم يخرج كل منهما وقد تأثر الآخر وأثر فيه .

إن عروض الشعر ولغته هما معًا مقياس تجديده ، ولقد رسخت فى عقل هذه الأمة العربية ، فى الزمان الطويل بعد الزمان الطويل ، أصول عروضية ونحوية ، كان الخليل بن أحمد من كبار كاشفيها ، يصدر الشعر العربى عنها فيدركه مستقبلوه ، ولولا صدوره عنها ما أدركوا أنه شعر عربى .

إذا استهدى الدارس بالعروض واللغة العربيين ، وأقبل يتعرض لما

أحدثه الشعراء منذ الجاهلية إلى يومه هذا، خرج بأنواع ثلاثة توفر لها من وضوح الأصول وظهور الشيوع ما يجعلها أخطر ما كان من شعر عربى : أولها الشعر العمودى الذى ضبطه الخليل بن أحمد فى كتابه المفقود، وثانيها الشعر الموشح الذى حاول هبة الله بن سناء الملك أن يضبطه فى كتابه «دار الطراز»، وثالثها الشعر الحر الذى حاولت نازك الملائكة أن تضبطه فى كتابها «قضايا الشعر المعاصر».

إن كل نوع من هذه الأنواع دعت إليه دواعى الوعى للحياة، فاجترأ عليه ذلك النفر المجدد انطلاقًا من الأصول العروضية واللغوية نفسها، غير أن تلك الدواعى دعت نفرًا آخر إلى أشكال فنية من الكلام، لم ينطلق فيها من تلك الأصول العروضية واللغوية، فاستحال على الدارس أن يعدها شعرًا رغم أنها من الكلام الفنى أيضًا، أكتفى هنا بالحديث عن الشكلين المهمين منها.

إن «النثر الفنى» المسمى خطأ «قصيد النثر» أول هذين الشكلين ؛ فإنه وإن انبنت لغته كثيرًا على أرقى ما يطمح إليه الشاعر الكبير بشعره، لم ينضبط له من العروض ما يأتى الشويعر عفوًا !

وإن الزجل «شعر اللهجة» المسمى «شعر العامية أو الشعر النبطى» ثانى هذين الشكلين ؛ فإنه وإن انضبط عروضه كثيرًا على أرقى ما يطمح إليه الشاعر الكبير بشعره، لم ينضبط له من اللغة ما يأتى الشويعر عفوًا أيضًا !

وينبغى ألا يظن أى من المجددين اللذين أحدثا هذين الشكلين أن فى تسميتنا الأول «نثرًا فنيًا» والآخر «زجلًا» تنقصا من إبداعهما، فما أكثر ما نضطرب لنصوصهما إيمانًا وتأثرًا، غير أنها المصطلحات التى لا مشاحة فيها.

لقد تحدث الدكتور مجدى وهبة فى كتابه الخالد « معجم مصطلحات الأدب » عن ذلك الشكل الأول ، فلم يغفل قط عن أنه نثر ، وإن جعله مرة شعرًا منثورًا ومرة نثرًا شعريًا ، فقال : « النثر الشعرى : ذلك النثر الذى يتميز ببراعة السبك ويستخدم المحسنات اللفظية والمجازات والأوزان الإيقاعية الشائعة فى الشعر عادة . وفى النثر العربى نجد مثل هذه الشاعرية فى مقامات البديع الهمذانى » ٤٢١.

وتحدث عن ذلك الشكل الثانى ، فلم يهمل اسمه المصطلح به عليه ، فقال : « الزجل : أحد " الفنون السبعة " فى الأدب العربى ، وهو شعر عامى لا يتقيد بقواعد اللغة ، وخاصة الإعراب وصيغ المفردات ، وقد نظم على أوزان البحور القديمة وأوزان أخرى مشتقة منها » ٦١٥.

لقد كان هذا العالم الكبير واعيًا هذه المسألة أشد وعى ، عارفًا أنه لو لم يستهد بالعروض واللغة العربيين فى نقد ما أحدثه المتفننون بالكلام ، لانفَرَطَ منه عقد العلم ، غير أن الذى أغفله أن « الزجل » عند العرب « التطريب » كما قال ابن منظور فى مادة « زجل » فهو اسم غير بعيد عن المسمى ، وإنما يكرهه من يجهل حقيقته .

* * *

# زواج اللغوى

سنفتح بابًا جديدًا
ليدخل منه المحبون من كل أرض إلى جنة الخلد
سنفتح بابًا جديدًا لهم ليستنشقوا من عبير الجنان المُعَطَّر بالطهر
والنفحات الرطاب الإلهية السحر
سنفتح بابًا جديدًا لهم وحدهم وندخله بينهم ونغلقه خلفهم
لنعلن للعالم المستبد الحقود المشوه أن المحبين قد جمعوا أمرهم
وقد عرفوا ربهم .

لقد روينا من أمثال العرب قولهم : «الحديث ذو شجون» أى طرق وفنون ، تبدأ فتتشعب ، يُفضى كلُّ شَجْن منها إلى غيره . ولسوف أحدثكم عن زواج اللغوى المعاصر حديثًا ذا شجون ، فتنبهوا لها .

حكوا أن رجلا أكب على موقد ينفخ فيه يريد أن يشعل ناره ، فغلبه الدخان ، فجعلت أخته تبكيه قائلة : «أىُّ فتى قتله الدخان» ! حتى صارت كلمتها هذه مثلا ، فلما أكثرت فيه قيل لها : «لو كان ذا حيلة تحول» فذهبت هذه الكلمة مثلا ، و(لتحول) هذه معنيان :

الأول ترك مكانه أى لو كان أخوك فطنًا لترك مكانه فنجا من الدخان .

والآخر احتال واتخذ حيلة ، أى لو كان أخوك صاحب حيلة لاحتال لنفسه فنجا .

وقد كاد دخان العزوبة يغلب اللغوى ، غير أنه تحول فنجا ...
و (لتحول) هذه أيضًا معنيان :

الأول واضح وهو أنه يترك اليوم مضيق الأعزاب إلى مندوحة الأزواج .

والآخر خفى طريف ، هو أنه صار تحويليًا ، فقد ترك الطريقة القديمة وصار يدرس ظواهر اللغة فى ضوء النظرية التحويلية .

ولكن انتبهوا ، هل يحوِّل الزواج الشخص إلى آخر ؟

أجل يحوّله ، وقاعدة التحويل هنا التركيب ، فقد كان مُفْردًا فصار مثلى مركبًا ، يفكر تفكير المركب ، ويعانى معاناة المركب ، ويفيد قومه إفادة المركب .

أما التفكير فيصير أكثر تعقيدًا وعمقًا وقوة ، لقد اكتمل صاحبنا فاستغنى عما يشغل تفكيره ، وقديما ذكر أبو حامد الغزالىّ من فوائد الزواج « تفريغ القلب » و« ترويح النفس » ، وكلاهما يحول التفكير من حال إلى حال .

وأما المعاناة التى اقترنت بها الدنيا ، فتصير على المتزوج فى الظاهر أشد ، غير أنها فى الحق أجدى ؛ فإنه لما غبط رجل إبراهيم بن أدهم الزاهد الأشهر ، على حاله ، قال له إبراهيم : لصيحة منك فى سبيل العيال خير مما أنا فيه أو خير من الدنيا وما فيها . وقد كتب الرافعى قصة رائعة فى اهتداء مالك ابن دينار ، مبنيّةً على إنقاذ ابنته له من حياة القصف والضلال ، تجدونها فى وحى القلم فى جزئه الثالث . فيوم القيامة يدخل الله سبحانه الأطفال الجنة وآباؤهم فى النار ، فيأبى الأطفال إلا أن يصحبهم آباؤهم ، فيُدخلُهم الله الجنة من أجل أطفالهم .

أما إفادة المتزوج قومه فغير خافية ، فمنها أنه إذا كان مفيدًا وهو مفرد عزب ، فما تقولون فيه وهو مركب متزوج ؟

إنه يدفع إلى الحياة ذرية مثله غالبًا تعين قومه على أن يغيِّروا ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم .

فالزواج يا إخوان ظاهرة تحويلية توليدية ، فليهنأ اللغوى بهذه الموافقة !
ولكن انتبهوا ، هل بين الزواج والعمل توافق ؟

أجل بينهما ؛ فالرجل إذا تزوج اجتهد غالبًا فى عمله إيمانًا منه بأنه إن لم يفعل فلن يكون جديرًا بزوجه التى ربطها به . ومن ثم تعجب من أصحاب شركات ومصالح يشترطون فى المتقدم أو المتقدمة إلى العمل العزوبة ، واشتراطهم قد يكون خفيًا يحكم اختيارهم . إن وجدت هؤلاء فاتهمهم ولا بأس عليك إن شاء الله .

ومن مظاهر توافق الزواج والعمل أنك تجد أسرة الرجل قد سلكت طريقه فى العمل غالبًا إذا كان بارعًا فيه .

فهؤلاء قوم تجار سلكوا طريق أبيهم التاجر الموفَّق ، وأولئك علماء حَبَّبَ إليهم العلم أبوهم الجهبذ ، وغيرهم شعراء كأنهم ورثوا الشعر من أبيهم المفلق .

راقب ذلك فى الغابر والحاضر تجده مستمرًا .

فأنا مثلا احتضنت ابنتى كتاب ( مجالس ثعلب ) وهى ابنة ستة وثلاثين يومًا ، وحفظت من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر النفيس ، وهي ابنة ثلاثين شهرًا !

داعب اللغوى ابنته مرة قائلا : انت بيضة ولا سودة ، فقالت : أنا بيضة ، فقال لها : بيضة مسلوقة ولا بيضة مقلية ، فقالت منزعجة : أنا بيضة شكلوك ! وقد فسّرْتُ ذلك بأنه الإرث اللغوى ، لقد أرادت أنا شكلُك ، ولكنها مدَّت اللام قليلا لاضطرابها وانزعاجها مما حسبتْهُ سخريةً بها .

ومن مظاهر توافق الزواج والعمل أنك تجد الرجل قد سلك طريق أصهاره فى العمل ، بل ربما تزوج ابنتهم ليعمل عملهم ، ونماذج هذا أكثر من أن تحصى ، وأنا كما ترون أحسن الظن به وأعُدُّه من مظاهر توافق الزواج والعمل !

لقد وجدت أحمد بن جعفر الدينورى قد تزوج ابنة أحمد بن يحيى ثعلب ، فسلك طريقه فطلب اللغة والنحو ، غير أنه كان يتجاوزه إلى المبرد ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، فيعاتبه ثعلب قائلا : إذا رآك الناس تمضى إلى هذا الرجل وتقرأ عليه يقولون ماذا !

فأنتم ترون إلى كم يريد العالم من زوج ابنته أن يمضى معه فى طريق توافق الزواج والعمل الذى أشرت إليه .

ولا أُخلى اللغوي من هذا القصد ، فما أحب دراسة الكمبيوتر إليه !

ولكن انتبهوا هل يمكن استخدام الكمبيوتر فى الزواج ؟

ولم لا ، فربما أمكننا أن نخزن بعضٍ المعلومات عن فتياننا وفتياتنا ، ومن شارف الزواج منهم ، وإمكانات كلٍّ ، بحيث يمكن لمثلى أن يستعين بالكمبيوتر على تتبع أعراسهم وحضورها !

فأخ يملك مرتبه فقط ويستطيع أن يحصل على ألف جنيه من جمعية بعد عشرة أشهر ، أستطيع أن أرقب عرسه مثلا بعد خمسين سنة ، وهكذا !

كما يمكنه هو أن يستخدم الكمبيوتر فيخزن به ما يضاف إلى صداقته من أصدقاء وطاقاتهم المالية ، حتى إذا بلغوا عددا ما أخبره الكمبيوتر أنه يمكنه أن يتسلّفَ منهم ما يتزوج به فى هذا العام ، وهكذا !

فأنتم ترون أنه بالغ الفائدة ، فعلى من يرغب ، الاتصال باللغوي لتحديد نوع الكمبيوتر !

* * *

# نجـــاة !

« إن البعوضة تدمى مقلة الأسد » أعرف هذه الحكمة ، وكذلك أعرف « ليس الخبر كالمعاينة » ، وقد عاينت .

لقد كنت منذ قليل الأسد ، كادت مقلتى تدمى ، ولم يكن ثَمَّ بعوضة ، بل ذبابة !

ذبابة كاسمها أذبُها فتثوب مولعةً بمقلتي ، شاحذة ذارعًا بذراع ، محملقة فيّ بعينين حمراوين كعيني مؤرق لا تطرفان من شدة حرصها على المراقبة وخبرتها بها . ذبابة جسيمة كنصف فولة ، سادرة كطائرة ضالّة ، طماعة جشعة كتلك الكلبة التى ظنت البدر رغيفًا فوثبت إليه تنبحه تريده !

لم تقنع بحجرة مكتبى ، فهى تقبل عادية حتى تنطح جدارها أو سلك شباكها الذى يرافق مكتبى ، ثم هى تقفل بذلك العدو ضاربة سلك الشباك بقدميها فتهاجم جفنىّ بغتة ، حتى إذا أهويت عليها بأصابعى أفلتت وخانتنى فروج الأصابع ، فإن كان بقى شيء فربما كان حمرة محاجرى !

أفلتت الخبيثة وسبحت فى جو حجرتى ثم عادت فضربت سلك الشباك ضربتها المشهورة ، ولكنها لم تهاجم جفنى ولا نطحت جدار حجرتى ، بل سقطت على المكتب أمامى !

عجبًا لها ، أأوهى قرنها السلك أم خارت من طول أرقها الشيطانة السوداء ؟!

لا ، إنها مستلقية على ظهرها تنازع نزاعًا شديدًا وتصخب فى غير جدوى .

ماذا بها ؟

إن بينى وبينها صحبة تحملنى رغم ما بى على السؤال عنها !

هكذا إذن، تعسًا لليدين وللفم أيتها الجبارة، ماذا أنت فاعلة؟
هذا صاحبى.
أنا وهو شيء واحد.
بيننا عهد قلبى لا نرجع فيه ما أن فى جو حجرتى ذبابة!
أنتَ أنتَ
أنت منعتها من أن ترتد إلى جفنى...
أنت قفزت فطُلتها فأطبقت منجليك على صفحتى عنقها القذر...
أنت اختفيت تحتها فلم أرك لأنك لم تجاوز نصف الحمصة، غير أنك حكمتها...
أنت تجرها إلى حيث لا أعلم، رغم جسمك الحقير وجسمها الخطير...
ويلك!
إلى أين؟
انتظر...
تعبت يا مسكين.
ما هذا؟
لقد أجهضتها مما خنقتها فأسقطت حِمْلَها
وما حِمْلُها؟
أف!
هذا دود مبتسر كثير قذر...
يا ويلى!
أنجو من شر إلى شر منه؟
تعسًا للذباب والعناكب!

* * *

# زلـزال !

رجعت الآن من القاهرة إلى بلدى ، وشقتى التى أهنأ فيها بوحدتى ؛ فقد ذهبت زوجى وابنتى إلى أصهارى تستروحان وسط خلال الريف الدمثة ، وقد كنت أعلم أننى إذا عدت ففتحت شقتى أقبلت علىّ أنغام الصمت والنظام والعزلة .

ما أحلى أن أبرد جسمى بوابل صيب من المياه ، هذا - لا ريب - حسن لى وللمياه ؛ فربما أسنت من طول نومها فى مواسير شقتى ، ونسيت حركتها .

أنا الآن أنضو عنى أثوابى ، ثم أفرغ فأدخل حمامى فأفتح طريق الغاز فأضغط مكبس الإشعال فأنهار عجبًا ؛ فكلما ضغطت مال الحمام !

( ما هذا ؟ أنا ما نويت شرًّا

أنا لست ذلك الفتى العنيد الذى هدم على نفسه أركان المكان ولا عرفت من نفسى تلك القوة فى ماضى زمنى ولا حدست بها فى مستقبله ) .

خرجت من الحمام فزعًا ، فتوسطت ممرا أمامه يقيم بين حجرة مكتبتى وبين باحة شقتى ، وعلى جانبيه أبواب حجرات النوم والمطبخ والكنيف .

توسطته مراقبًا ما عن يمينى ويسارى من جدران ؛ فقد دبرت سريعًا أنه إذا انكفأ الجدار الأيمن فررت إلى الأيسر ، وإذا انكفأ الأيسر فررت إلى الأيمن ، وإذا انكفآ جميعًا فررت إلى حجرة مكتبتى ، فربما كفتنى ذلك ( الكافية ) أو رجال ( الحماسة ) أو ( العثمانية ) ، وإلا فربما رحمنى بعض

(الحيوان) فدرأ عنى، فإن لم يكن شىء من ذلك قعدت (فى ظلال القرآن) أو سبحت فى (البحر المحيط) فعسى أن يكون هناك (العواصم من القواصم).

لم أكن أحسب أننى أركب ظهر سيارة نقل فى صحراء صعبة عاريًا، يومًا ما على الحقيقة لا فى بعض أحلامى المزعجة، غير أننى الآن موقن من تحقق ذلك لى وأنا متوسط ممر شقتى التى أمام الحمام الذى لم أستفد منه راحة، لا ولا بردت جسمى!

(لا حول ولا قوة إلا بالله...

إنا لله وإنا إليه راجعون...

وحيدًا!

هكذا أهلك وحيدًا

وهى وابنتها هناك

ولم أتحمم ولم أتّقِ البَرْد بثياب ولا طعام).

* * *

# حِيلَــة

الآن فقط استبشرت خيرًا السرية السابعة بمركز تدريب المشاة ؛ لقد علمت أنها ستكون بين من يحضر مباراة المنتخب الكروى ونظيره الأجنبى ، بالملعب الكبير ، للتشجيع .

هى اليوم تستطيع أن تتذكر وجوه المدنيين ومدينتهم .

وهى اليوم تستطيع أن تتشبه بهم ولو سويعات .

وهى اليوم كذلك تستطيع أن تنسى وجوه القادة الصغار والكبار ، وأن تخالفهم إلى ما ينهون عنه ، ولو سويعات أيضًا !

كان جنود السرية السابعة متعلمين (مؤهلات) على العموم ، وجامعيين (مؤهلات عليا) على الخصوص . وقد اقترن فى نظر العسكريين الجندىُّ المتعلم باستصعاب حياة الجيش والأنفة من بعض مظاهرها واستنكارها ، ولم يكن ذلك منهم خطأ محضًا ، وقد كان الجندى المتعلم محقًّا كذلك فى أحيان ما .

– آه أيتها العنابر الكئيبة ، تراك ظننت أنك تكتمين أنفاسنا أبد الدهر !

وأنت أيتها الرمال ، ألا ترين أنه هناك تنقطع بك السبل ويغلبك التراب !

– محمد ، أسرع ؛ فقد حضرت السيارات الصحراوية التى ستحيينا .

بعد إجراءات نظامية مضجرة ركب الجنود ظهور السيارات التى اخترقت بهم حجاب الموات .

قال محمد : أسامة ، خالد ، عصام ، عند محطة تموين الوقود ، فعندئذ تهدئ السيارات سرعتها .

وقفزت العصابة الصغيرة فاتحة طريق الهروب لغيرها ممن يحسن

الاقتداء، وقد أضمر أعضاؤها أن ينعموا بحضور أنقى وأرقى.

أدرك أسامة أهله بالعمرانية وزار خالد وعصام أقارب لهما ببعض مناطق القاهرة. أما محمد فقد مر بجوار منزل خاله بعد ما قفز من تلك السيارة، ولم يزره، فقد هم بأمر خطير، أن يرحل إلى أهله فى المنوفية، وقد فعل!

لقد تيسر له أن يلقاهم عصرًا فنعم معهم بما كان رجا وتمنى، ولكن شيئًا داخله كان يحاول إقلاق راحته، ولم يكن مجهولا لأى أحد يراه ويعرف حاله؛ إنه مطالب بأن يعود قبل أن يرجع الجنود إلى المعسكر فيُحسَبوا ويكشف حاضرهم وغائبهم.

كان ذلك فى الشتاء وكان موعد الرجوع العشاء، وكان داء الشتاء الكسل!

تمزق محمد بين رغبة فى اغتراف ما يمكن اغترافه من ملاذ بيت أهله، وبين رهبة من فوات الوقت، ولكنه استطاع ألا يعبأ بدقة الموعد، ومكث يومه وبعض الليل ثم رحل فى قطار التاسعة والنصف الذى أبلغه المحطة الكبرى فى الواحدة بعد منتصف الليل، ليركب سيارة غالية الأجرة إلى أقرب مكان من مركز تدريب المشاه، معسكره البغيض الذى ازداد له بغضًا وعليه حقدًا فى ليلته هذه؛ فقد كان الليل يلبسه ثوب هول ووحشة ومقت أسود.

وحيدًا سار إلى منقطع المعسكر، ومفردًا دخله، وعابسًا وجده لا تبين علامات عبوسه مما غلفه الظلام وانقطاع الكهرباء به.

كتم فى نفسه ذلك الجفاء إلى حين مباراة أخرى، ثم دخل (عنبره) فأنكره، إنه هو غير أن به نفورًا.

قال صابر زميله: أين كنت يا محمد؟

– لقد اغتنمت ذلك الوقت بين أهلى، لقد سافرت إلى بلدى.

- نعم !
- ماذا بك ؟ أحدث شيء ؟
- طبعًا ، لقد شدد الضابط متولى الجزار فى كشف الجنود ، ولما وجد خللًا اشتعل غيظًا حتى إنه ضرب صاحبنا الطيب عبد الهادى فى محاشمه فصرعه ، ولم يدع فينا عيبًا إلا ذكره ولا نسبًا إلا أنكره ولا قرابة إلا سبها ، ثم لما حصر الغائبين لم يجدهم غير اثنين أنت وصاحبك أسامة ، وقد أمر إذا أتيتما أن تقابلاه .
- الآن استبانت علامات العبوس !
- ماذا تقول ؟ آتى معك فى هذا الليل إلى مقر الضابط ؟
- لا ، بل نم أنت .

سار محمد أسير ظلمات متراكبة إلى غرفة الضابط ، فدق بابها مرتجفًا مرات فلم يجبه أحد ، فعاد مرتاحًا حيران ، لا أنيس يخفف عنه ، إلى (عنبره) المشئوم ليجول فى فراشه محاولا النوم إلى أن أذن الفجر فقام فصلى ثم آب إلى متعبه ليفكر فى مصيره ، إلى أن أتاه أسامة فأحس بالصباح .

- يا لك من جسور ، تبيت خارج المعسكر ؟!
- وماذا فى هذا ؟
- أخبره يا صابر .
- أخبرته ولكنك تعرفه .
- لا هزل الآن ، هيا معى إلى حيث القائد الناقم الجزار نحتل لأمرنا .

خرجا إلى أن اقتربا من غرفته فوقفا يراقبانها أن ينفتح بابها ، فكان ، فتابعا الضابط فأحسا أنه يريد أن يغتسل فهم محمد بمساعدته ووافقه أسامة .

اقترب محمد قائلا : سيدى القائد ، لديك مياه ؟

- أجل ، ولكن صب لى ، وأنت هات منشفتى .
- سيدى القائد ، ألا تذكرنى ، أنا الذى جالستك مع ضابط التوعية .
- ذكرتك .
- سيدى القائد ، يبدو أن اسمى أنا وصاحبى لديك ، وقد أردتنا .
- لماذا ؟
- بخصوص رحلة أمس .
- أنتما ...
- أجل !
- ما اسمكما ؟
- أنا محمد وصاحبى أسامة .
- لا بأس .
- شكرًا سيدى القائد ، شكرًا جزيلًا .
- انتظرا ، تلك سيارتى ، يبدو عليها بعض الغبار .
- لا عليك سيدى القائد ، نحن ننظفها لك .
- إذن أسرعا ، فقد أزف موعد (طابور) الصباح .
هرولا وعلى فميهما ابتسامة لا تخلو من سخرية !

* * *

# سَوْطُ المَطَر وحَجَرَةُ الرَّعْد

لقد أوغلت بنا ( ميكروباص ) القاهرة فى أرض المنوفية ، وعدلت عن أم الطريق إلى بنياته الضيقة التى يُشَبِّهها سائقو ( الميكروباص ) بغرز الإبرة ؛ ففيها لا تكاد السيارة تسير يمينًا حتى تتجه يسارًا ولا يسارًا حتى تتجه يمينًا ، وهكذا دواليك حتى أقرب الأجلين : آخر الطريق أو هلاك السيارة .

إنها لليلة ليلاء هذه التى تقطر فيها السماء بعد يوم حارٍّ من آخر أيام ( أمشير ) غير المأمون عند أهلنا الفلاحين ، والأعجب أن هذا القَطْر استمر حتى اهتم بعض ركاب ( الميكروباص ) ممن سينزلون فى خلال بنيات الطريق حيث تختبئ قراهم التى عاشت آمنة من ويلات أم الطريق حتى فضحتها بنياته وآذتها ويلاتها بما تقذفها به من صرعى مطروحين هم وسياراتهم عن يمين وشمال .

ثم مطرت السماء ظهر ( الميكروباص ) فاغتم زميلنا فداعَبْتُهُ :

– أينزل أحد فى هذا الوقت ؟!

فغالب كآبته ليبتسم فلم يكد ، ثم تجاوز مكان كرسيِّه ليقترب من الباب ، فداعَبَه أحد من تجاوزهم :

– هدومى وحِذاءَك ، أم تُراها لم تمطر فى آخر السيارة ؟!

غير أنه كان قد استسلم للكآبه بكُلِّهِ ، ثم نزل إلى قضاء الله ونسيناه .

كان السائق بنا خبيرًا ، يحذر مآزق الطريق ، ويطأ أرضه هَوْنًا لكيلا يضطر – إذا أسرع – إلى كبح جماح سيارته حيث لا يجدى الكبح

فيهلك ويهلكنا نحن وسيارته، فوصلنا سالمين إلى مدينتنا (منوف) الشبيهة بالقرية.

لم تكف السماء عما فعلت، بل زادتنا، فلما حان نزولنا من السيارة، جعل كلٌّ منا يتأخّر ويقدِّم غيره، وكأنه سيظلِّله بظلِّه الممدود!

حيثما يمّمتَ وجدتَ بمدينتنا علامات القرية، ومن قديم عشقتُها لهذا، أما الآن فأتمنّى أنني فى الإسكندرية، مثلًا، ذات مصارف الشوارع، يغسلها المطر فتشربه المصارف، ويبقى كل شىء بعده لامعًا كأنّما صُنع الآن.

أين أضع قدميّ بحذائى الجديد؟ أم كيف أُخفى (بَدْلتى) الصوفيّة؟ هلكتْ أوراقى الغالية بحقيبتى الجلدية.

– ولد، تعال.

فلم يأت صاحب (الحَنْطور)، بل تمهّل قليلًا، فجريتُ ووثبت إلى داخله، وفى التو تفقّدتُ المقعد فلم أجد به موضعًا جافًا، فهوّنت على نفسى الأمر؛ فإن ما أنا فيه بالقياس إلى الوقوف فى الشارع غنيمة باردة.

لم يكن من حق الولد صاحب (الحنطور) أن يأخذ راكبًا؛ فليست نوبته، فضلًا عن صغر سنه وهو المار وسط مجتمع من ينبزون بأنهم (عربجيّة)، فنادوه أن يقف ليأخذونى منه، وسبوه ولعنوا أباه وأمه، غير أنه كان ذا فرس شديدة وقد أَمَرْتُه ألا يعبأ بهم فصادف الأمر منه هوى، فهاج فرسَهُ فركضت وفاتت (العربجيّة) وقد حَدَّهم المطر.

– ولد، هل سَقْفُ (حنطورك) هذا مخروم؟

صِحْتُ فيه وأنا حيران؛ فقد كنتُ فرحت (بالحنطور) الذى سيحمينى، فإذا المطر كأنه يحتال ليدخل إلىّ فيه. إنه ذنب السخرية من

زميل (الميكروباص) وتضييع حَقٍّ (العربجيّة) بلا ريب !

بإيقاع حدواتها السريع مرت الفرس (بالحنطور) وأنا داخله وسائقها فوقه ظاهر للسماء، تأكل طريق المدينة القرية الغارق المُوحلَ، حتى إذا ما بلغت مبنى مجلس المدينة أَخَذَتْ يمينًا وكان ينبغى أن تأخذ أمامًا إلى شارع مدرسة الزراعة الذى أنتمى إليه.

– ولد، ما هذا ؟ هل ستختصر الطريق ؟ إذن وجِّهها بعدئذ يسارًا.

– لا يا عم، لن أستطيع أن أُكمل فى مثل هذه الحال، إن السماء تُمْطرثلجًا، إنها تمطر ثلجًا ثلجًا، لا، لا، لا أستطيع، لا يمكننى، لقد ظنت الفرس الثلج على رقبتها وأذنيها لَفَحاتِ سَوْطى أوجِّهها بها يمينًا فاتجهَتْ.

كانت الفرس قد وقفت (بالحنطور) وأنا داخله مغيظ وسائقها فوقها خائف، أمام (وَرْشَة) نجارة صغيرة جدًّا، فى ضوء نورها رأيت الثلج كالحَصَى يصيب متن الفرس بعد ما نزل سائقها.

لقد أغرانى عامل (الورشة) بالنزول إليها حتى يكُفَّ المطر المُثلجُ فنزلت ولُذْتُ بها أنا والولد لاجئين.

اشتد هطول المطر المُثلج وانقطع تيّار الكهرباء وأبرقت السماء وأرعدت كما لم أر وأسمع من قبل. كانت إذا أبرقت أعشت العيون وكشفت ظلام الدنيا، وإذا أرعدت أصمّت الآذان وأخافت القلوب، فجعلت أنا وعامل (الورشة) نتذاكر آيات القرآن فى المطر والبرق والرعد، من مثل قول الحق سبحانه : ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾، وقوله : ﴿هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا ويُنْشئ السحاب الثقال﴾، وما فى هذه الظواهر للبشر من عظات يغفلون عنها، حتى لقد خاض الولد صاحب

(الحنطور) فيما نحن فيه، وكان كلما اشتد الخطب صاح :

- الطف بعبيدك يا رب !

يا رب !

يا رب !

وكانت له فى ذلك نغمة خاصة يضحك منها بعض صبيان ذلك العامل، فيرد مستنكرًا عليهم ناظرًا إلىّ :

- وما الذى أقول إذن ؟!

فأهز رأسى موافقًا شارد اللُّبّ ؛ فأنا الذى سافرتُ من القاهرة إلى منوف دون أن يحجزنى حاجز، أعجز عن بلوغ منزلى وبينى وبينه مسافة دقيقة .

صهلت الفرس المفردة فى خارج مع المطر المُثلج هلوعًا، فأجابها الولد من داخل :

- حاضر، ها أنا ذا، لا تخافى .

فَهدَأَتْ، فَعَجِبْنا، فأَخْبَرَنا أنها تعرفه وتألف صوته وترتاح إليه وتطمئن به .

- ما هذا ؟ لقد أمطرت (الورشةُ) ! يا لحظى، فررت من الرّمضاء إلى النار !

كانت (الورشة) فى بيت من طابق واحد، سقفها مكشوف للسماء، ولا قبل له بما أصابه، لذا نضح مطرًا تخلّله إلينا، فأما نحن فكنا نتحول من المكان الممطور، وربما لم نَعْبأ ؛ فلن يضُرّنا البلل بعد الغَرَق، وأما مصنوعات الخشب فهى موطن المخافة، وقد كنت أجامل العامل بإظهار خوفى عليها أن يفسدها الماء، وتنبيهه إلى الموضع الممطور بعد

الموضع، وكنت أراه غير متأذٍّ لهذا، فسألته فأخبرنى أن الذى فى هذه (الورشة) قليل نحمد الله عليه، إلى كثير فى المخزن.

يا من يحملنى إلى منزلى ويتمنّى على ما يشاء!

– ولد، أما تلاحظ؟ لقد خفّ المطر فلمَ لا نذهب سريعًا فتوصلنى وترجع إلى حيث تقى فرسك الخطر؟

– لا، لم يخفّ بعد، إنك لا تراه، انظر إلى الأرض فى ضوء نور ما يمر سريعًا من السيارات، أو ضوء البرق، ولسوف تدرك الحقيقة.

إن الولد على حق، ولكن لا حيلة لى إلا الإلحاح عليه والاجتهاد فى إقناعه بالحق وبالباطل.

خفّ المطر قليلًا ما، واقتنع الولد قليلًا ما، فخرج إلى فرسه فعدّل وجهتها، وأمرنى أن أحضر له سوطه الذى تركه على منضدة (الورشة)، فائتمرت سعيدًا، وجريت فوثبتُ إلى داخل (الحنطور) بأسرع من ذى قبل، وهوّنت على نفسى أمر غرق مقعده أكثر من ذى قبل.

لقد صار الولد يسوق فرسه سوقًا خفيفًا خشية الزَّلَق، وكنت أضيق بذلك ضيقًا شديدًا خشية أن يعود المطر إلى سابق عهده، فى حين كان الناس من عن يمين الشارع وشماله يستصرخونه ويستغيثونه:

– يا صاحب (الحنطور) ... يا صاحب (الحنطور)

قف، قف بالله.

فيردُّ عليهم سعيدًا:

– مشغول ... مشغول.

لقد كان يستمتع برفض إِصْراخهم وإغاثتهم، ولا يتورّع عن أن يُصَرِّح لى بأنهم لا يعرفونه إلا وقت الشدّة، ولم يدر أننى منهم ومثلهم!

لما أن بلغ شارع مدرسة الزراعة ومرّ فيه نبّهته إلى أن يأخذ يمينًا إلى شُوَيْرِع فيه منزلى ، فأبى واقفًا فرسَهُ على ناصيته معتذرًا بأنه لو دخل ما ضمن أن يخرج ، ولقد كنت أتوقع منه ذلك غير أننى ظننتُ ما جمعنى وإياه من مشاهد تؤلِّف القلوب ، كفيلًا بأن يشفع لى عنده ، فلما لم يشفع أغريتُه مُحذِّرًا ، بأنه إذا دخل بى حَبَوتهُ ( كذا ) وإن أبى لم يحصل إلا على نصف ( كذا ) ، فرضى بنصف ( كذا ) وأفلتنى بجلده وحيدًا ، المطر من فوقى والغرق والزلق من تحتى والظلام الدامس من فوقى وتحتى وحولى !

أقبلت أخَمِّن بسابق علمى بطبيعة المكان أصلح ما أضع فيه قدمىّ ، سعيدًا بسَداد تخمينى ، ثم بغتةً غرقَتْ قدماى بحذائى الجديد وطرف سروال ( بدلتى ) فى مَهْوًى لم يخطر لى ببال ، فطرَحْتُ عن عقلى عناء التخمين وخبطتُ خَبْطَ عَشْواء .

بلغتُ منزلى أضحك من حالى ، فتحلّق أهلى حولى فرحين بنجاتى ، وجعلت أقصُّ عليهم العجيبة مما لقيت ، فيردّون عليها بعجيبة مثلها أو أعجب منها ، وكان أعجب ما سمعوه منى - فيما رأوا - المطر المُثَلِّج الهاطل على رقبة الفرس وأذنيها ، الذى انخدعت به فظنته لَفَحات سوط سائقها يوجّهها بها يمينًا فاتجهت ، وكان أعجب ما سمعته منهم - فيما رأيتُ - الرعد المُدوِّى الذى خافه بعض صغار أطفالنا فظنّ أن الله ألقى عليهم من علٍ حجرةً ضخمة توشك أن تُهْلِكهم !

* * *

# قضاء وقدر

مِصْريّان ...

أما صلاح ففتىً أسمر طيّب قوىّ البنيان ، من إحدى قرى المنوفية ، وقريته أبعد القرى عن ملامح المدن التى جعلَتْ تَبْغى على ريف مصر .

وأما محمود فمارد أشقر أخرق عَريض الدعوى ، من إحدى قرى كفر الشيخ التى ظلمتها المدينة فانظلمت !

بين المنوفية وكفر الشيخ مسافة سفر ، غير أن أقدار التجنيد بالجيش جمّاعة ، والاجتماع هنا نادر غريب عليهما ؛ إنهما معًا فى خيمة واحدة ضمن فصيلة واحدة تابعة لسرية وقود مقيمة بحفر الباطن التى هى إحدى مدن شمالىّ شرقىّ المملكة السعودية !

ربما نَسيت هذه المدينة اسمها آنفًا لندرة ذكره ، غير أنها الآن حديث العالم كلّه لِمَا يعُمُّها مِنْ صَخَب الحرب .

صدر الآن أمر من قائد السريّة بذهاب اثنى عشر جنديًّا إلى مدينة القيصومة الكائنة على عشرين كيلو من حفر الباطن، ليتسلّموا ست سيارات ، فكان من الجماعة صلاح ومحمود .

فوجئت الجماعة فى القيصومة بأنّ السيارات شاحنات ضخمات فخمات لا كما تَخَيَّلوا أو عهدوا ، فجعلوا يجادلون قائد المقر فى تسلمها — وما ذلك إلا لأنهم تعوّدوا فى بلدهم أن متسلِّم السيارة مسئول عنها ، يَغْرَمُ من ماله ومال أهله خسائرها وأثمان إصلاحاتها ، وهذه الشاحنات لا قِبَل لأحدهم بما يصيبها ولو باع قريته كلها !

فيقول أحدهم : لا علم لى بقيادة هذا النوع ، ويذكر آخر أن أكبر ما قاده سيارة ( جيب )، فيسخر القائد منه شاتمًا :وهل وجدتَ أكبر من ذلك

يا ابن الحافى لِتقوده ؟!

كان نَصيب كل شاحنة جُنديّين سائقًا ومرافقًا، ولم يكن إلا أن يأتوا بها، فقرّ قرارهم بعد جدالهم ذلك، وتَمّ لخمس شاحنات أطقمها وبقيت واحدة أمامها صلاح ومحمود صاحبانا !

أمر قائد المقر صلاحًا بتسلمها فأبى معتذرًا بضعف خبرته بهذا النوع، فتحوّل إلى محمود فقبل مُرحّبًا ذاكرًا أنه صاحبها الذى سيقودها عَروسًا متألقةً وأنه يعلم ويفعل وسيفعل...

تم الأمر، واصطفت الشاحنات فكانت خامستها فى الترتيب التى يقودها محمود وبجواره صلاح، ثم استمع الجميع لشرح طريقة استخدام مفاتيح الشاحنة.

صار الأمر إلى جماعة الجنود وخرج عن سلطان قائد المقر، فابتدأوا السير إلا الأخيرتين، والحق أن السادسة لا ذنب لقائدها إلا أن الخامسة تعوقه؛ فقد كان محمود يديرها كمغامر، فترتج كمصروع ثم تقف، فضاق به قائد السادسة فاحتال حتى تجاوزه وأدرك القافلة.

يعيد صاحبنا الكرّة فتعيد الشاحنة فعلتها فتضيق به الدنيا ولا يكاد يرى الأفق أمامه ولا القافلة.

خطر لصلاح - وهو سائق كذلك وإن لم يكن مدعيًا ولا خبيرًا - أن تكون (فرامل) المقطورة غير مرفوعة - فكل شاحنة بنيانان مقطورة ضخمة تحمل الوقود وجَرار يجرها، به مجلس القيادة - فأخبر صاحبه بذلك، وبحثا عنها فوجدا أصبع حديد بجانب كرسى القيادة، فجذباها، ثم أدار محمود الشاحنة فتحركت ونسيت صرعها قليلا.

لقد كانت فخمة سهلة الإسراع فأغرت صاحبنا فبلغ بها أَوْجَ سرعتها.

– الله ، عما قليل ندرك أولئك الجبناء ونسبقهم .

– انتبه يا محمود عَمَر الله بيتك !

– عروس والله ...

– يا ابنى مالك تميل يمينًا ثم يسارًا شاغلًا الطريق كلها ؟!

– هكذا الطرق ، ما أحسن ألا يسير فيها غيرك !

لم يتمتعا طويلًا بانفرادهما بطريق فخمة فى شاحنة أفخم ؛ فقد برزت خلفهما سيارة ( جيب ) يحاول قائدها الأمريكى – وكلُّ أجنبىٍّ عندهما الآن أمريكى – أن يفوتهما فلا يعرف ، لتمايل الشاحنة يمنة ويسرة .

انتبه محمود لما نبهه صلاح طالبًا منه أن يفسح له ليستريحا ، ولم يكن محمود عاصيًا أو رافضًا ، بل أسيرًا لطغيان صاحبته التى كان تمايلها له أقصى ما منّت به عليه .

لم يرض قائد ( الجيب ) الأمريكى – وهو أخفُّ منهما حركة – أن تطول هذه الحال ، فاحتال حتى أفلتهما ، فما كادا يحمدان الله أن استراحا من قلقه حتى رأيا نور ( الجيب ) الخلفىّ الدال على بداءة توقفها .

لم يقنع الأمريكى المغيظ بإفلاته من نزق الشاحنة وصاحبيها ، فأوهمهما بضغطة سريعة على ( فرامل ) سيارته أنه سيقف مضطرًّا ، ثم فرّ طائرًا غير أنه خلّف مأزقًا كبيرًا .

بادر محمود فداس ( فرامل ) جرار شاحنته وحدها دوسًا كاملًا ، فثار بعض الشاحنة على بعضها ، وذهل محمود عن أمره ، وداخ صلاح وحلم بأنّ كائنةً مفزعة تَدَحْرَجَت مرارًا وأنهما يستقبلان أمرًا خطيرًا ...

لم يعرفا ما حدث لكن عرفا أن الله سلم ، ثم تفقدا الشاحنة فوجدا

المقطورة عند دوس (الفرامل) قد هجمت على الجرار وفيه مجلسهما، فعجنت سريرًا به وأقبلت ناحية صلاح فغاصت بالباب فى بدن الجرار وتَلَعَّبت ببطنه فأفسدت أجهزته، وسمعا خَريرًا فنَزَلا يتفقدان أسفل أمرها فراع صلاحًا دم أحمر قانٍ يبادر الأرض فيلونها.

– محمود، يا خبرًا أسود، فتِّش فى وسأُفتِّش فيك لنعلَم مصدر هذا الدم...

– لا شىء بك.

– ولا بك.

– عُدْ بنا ندقق النظر...

– محمود، فتح الله على أهلك، هذا زيت عجلة القيادة، تَمَّ الخير والحمد لله!

– ماذا سنفعل إذن؟

– ننتظر يا غبى، فعندما تصل الشاحنات إلى حفر الباطن سيكتشف القائد غيابنا فيسأل ثم يعالج الأمر، وأنت تعلم علاجه!

وقد حدث ما قدّره صلاح ولكن بعد وقت، ففى عصر ذلك اليوم جاءهما القائد ومعاونه (بأتوبيس) جيش، فسلّما بوابل من السُخرية والتقريع والتوبيخ والسبّ واللعن ثم حاولا شدّ الشاحنة فما استطاع (الأتوبيس) إلا تنحيتها عن عُرْض الطريق.

حكم القائد لمّا علم منهما معًا حقيقة الوقعة، ببقاء محمود وأخذ صلاح معه لإحضار ما يمكنه جرّ هذه الشاحنة، فتطوع معاونه فرأى أن يبقى صلاح كذلك، فأنفذ القائد رأيه – ومن قديمٍ تجنى الصحبة – ثم رجعا كأن لم يأتيا...

بقى صلاح ومحمود مع شاحنة ضخمة، لا قبل لهما بضمان سلامتها، فى طريق غريبة لا علم لهما بها، مخنوقة برمال لا نهاية لها، لا يكاد يزورها أحد، وقد أزف رحيل النهار وهجوم الليل ...

هاهما يضطربان بأمرهما وقد أَحَسّا للجوع ببطنيهما كطعنات رماح، وليس معهما من زاد الجيش شيء، فلم يكن مقدرًا لرحلتهما أن تطول، ولا عبئ بهما الضابطان، ولإقبال المغيب ألم كسكرات الموت ووحشة تؤازرها وحشة الأرض القفر وفقد الأنيس... ها هما يتلاومان ويتمنيان :

- أفٌ لك ولهذا المكان، لكأنك أنت وقادتك والمكان والزمان اتفقتم على إهلاكى... ألا تعلم حقيقة حالنا، لو خرج لنا أحدهم - وهم يَتَضَوّرون الآن فى مخابئهم - لهاجمنا طلبًا لما يحييه، غير متورع عن قتلنا إن شاغَبْناه... ويلى عليك، من لى الآن بطبيخ أمى أو خبيزها أو شايها، أجلس أرقبها تصنع ذلك فى دهليز دارنا، مالئًا عينى من معارفها الحبيبة، مجاذبًا أبى الطيّبَ الحديثَ، ملاعبًا أولاد إخوتى الذين يملأون الدار...

آه ! فى مثل هذا الوقت يثوب الفلاحون ببهائمهم إلى دورهم، ليجدوا نساءهم قد صنعن لهم طعامهم وحَسَّنّه ما استَطعْنَ، فإن كنت فيهم أقبَلتْ علىّ رياح الطمأنينة كلما دنوت من دارنا، وإن كنت فى الدار طالعتهم وهم يمرون على بابنا المفتوح أبدًا مُسلّمين، فتغمر قلبى طمأنينة كتلك، مِنْ حِياطتهم وبرّهم وأنفاسهم الطاهرة...

آه أيها الطيبون الطاهرون، تُراكم راضين عنى ؟!

- هَوِّن عليك يا صلاح، عمّا قريب يحضر مَنْ يأخذنا من هذا المكان...

– انظر، ألا ترى تلك الخيمة ؟

– أين ؟ ليس ثَمّ شيء !

– انتبه يا أعمى يا عديم المنفعة، هناك .

– نعم نعم، على مرمى البصر .

– أنت بالطبع محظوظ، لا تصلح لشيء، فابق هنا وأغلق عليك زجاج الجرّار واحفظ سلاحنا ؛ فلن آخذ بندقيتى لكيلا يظن بى أحد شرًّا، وعندك ستمائة رصاصة معبأة وغير معبأة، فاحترس وقَدِّم سوء الظن بمن يقبل عليك حتى تسلم، وسوف أذهب إلى هذه الخيمة علنى أجد طعامًا أو شرابًا .

– بالله لا تتأخّر .

حثّ صلاح الخطا حتى إذا ما قارب المقصد وجد حائط سلك فأقبل يتفقده فصاح فيه شيء : استُبْ ...

– (هذا إذن جندى أمريكى كذلك، وهذه منطقة عسكرية، ولو رجعتَ جريًا حسبكَ عدوًّا فاستعمل سلاحه، ولو أقدمت لم تأمن، ولا علم لك بلغته . لا تظن ما أُلقيَ عليك فى دراستك الإعدادية والثانوية الزراعية من دروس الإنجليزية ذا فائدة ! لا جدوى من ذلك وما كنت تظن أن تقف هذا الموقف أبدًا، فكيف ترى ؟) .

هيه ... أنا إيجبت ... إيجبت ...

– إيجبت كايرو ؟

فأشار إليه صلاح موافقًا، فأشار إليه الأمريكى أن يذهب إلى مكان متقدم ...

وصل إلى المكان فلقيه جندى آخر، ثَبّتَه كما صنع الأول فذكر له ما

ذكره لصاحبه السابق، فدخل حجرة فى المكان فخرج آخر يبدو أعلى رتبة، فحياه ثم رطن له رطانة لم يفقهها، ففكر صلاح ثم أظهر هُويته العسكرية ظنًّا منه أنها ستحسن موقفه شيئًا، فتفقدها الأمريكى ثم أظهر له ما يشبه القبول والموافقة عائدًا إلى رطانته ...

- ( نعم ! الله الله !

هذا إذن آخر المطاف

هذا هو الذى سيفهمنى حقًّا بعد أن أبى الزملاء والقادة والمكان والزمان كيف أصنع يا ربى ؟ ... أُشير ؟ ... نعم أُشيرُ له ... أشير ) .

أشار صلاح إلى الخلف وأن له شاحنة تعطلت على الطريق، وإلى بطنه وأن ليس به شىء، وإلى فمه وأنه يريد أن يأكل، وإلى حيث صاحبه وأنه يريد طعامًا لاثنين. نجحت محاولته - ولقد تُغْنى الإشارة - فأمر الأمريكى زميله فذهب عنهما بعيدًا ...

بقى صلاح مع الأمريكى الذى ظل يرطن له ضاحكًا، وصلاح لا يفهم كلامه ولا يعرف لضحكه سببًا حتى ضاق به ففكر أن يصنع مثله ...

استجمع صلاح غيظه ثم انفجر ضاحكًا قائلًا :

- ألا تدرى أنكم بقر ! ، نعم بقر، أقسم لك بالله أنتم بقر ! هأ هأ هاى ...

بعد قليل أتى الجندى المأمور ( بكيسين ) أخذهما صلاح فاهمًا أنهما الطعام رغم تَرَجْرُجهما في يده كأنّ بهما عجينًا شديد اللين، ثم أشار للأمريكى أنه يريد ماء له ولصاحبه أيضًا، فأحضر له زجاجتين كبيرتين، أخذهما شاكرًا شكرًا إنجليزيًّا : سانك يو، فطفق الأمريكى يكرر معه :

ثانك يو ، سانك يو ، ثانك يو ...

عاد صلاح يحاول الاهتداء إلى مكان صاحبه وشاحنته التى كانت بلون الصحراء ، ولكن كان الليل قد ألبس الكون ثوبًا مخيفًا ، والليلة كما بدا له ، لَيْلاء ، والحركة مهلكة !

جعل صلاح يسير مرة ها هنا ومرة ها هنا على غير هدى ، يخبط الأرض خبط عَشْواء ، إذا داس أو مال بشِقِّه لم يأمن أن يزل فى بئر أو ينطح صخرة ...

- (لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، أهكذا ؟ ... ليتنى كنت انتبهت إلى دروس ذلك الضابط التى كان يحاول فيها أن يعلمنا الاهتداء بالنجوم ... ليتنى لم أترك ذلك البَغْل فى الشاحنة ... ماذا لو كنا انتظرنا قليلا أو كثيرا ؟ ... ليتنى لم آت إلى هنا ... ليت أمى لم تلدنى ...!) .

الآن أحس إقبال سيارة من بعيد ، أسرع فتلفت مهتديًا بنورها فاكتشف مكان الشاحنة الذى لم يكن بعيدًا ، فسار إليه ...

أقبلت سيارة أخرى فاهتدى بنورها فاكتشف أنه أخذ جهة غير جهة الشاحنة فعجب كيف مال سيره هذا الميل كله ، ثم احتاط هذه المرة فأقبل على الشاحنة الكئيبة ...

ما كاد يقاربها حتى وجد صاحبه قد أخرج بندقيته الآلية ووجهها إليه تمامًا آمرًا بالوقوف !

صرخ فيه صلاح مستجمعًا كمده وتعبه :

- ولد يا محمود يا ابن الأهبل ، أنا صلاح يا غبى ، خَرّب الله بيتك وبيت أهلك ، وقد أحضرت لك سُمًّا ناقعًا لتأكل وتشرب !

عندئذ فقط عرفه محمود وجاع له ! ونزل وأقبل عليه يعاتبه :

– أتدرى ، لقد كان مكوثك معى خيرًا من أن تتركنى هذا الوقت وحدى .

– وأنا يا ابن الفالحة ، ترانى سعدت بهذه المغامرة المهلكة ؟ دع عنك هذا وتعال نفضّ (الكيسين) ونأكل ونشرب .

فتح كل منهما (كيسه) فوجدا فيهما شيئًا يشبه (فَتّة اللبن) له رائحة غريبة وكذلك كان طعمه ، فتركاه وأقبلا على غيره فَضًّا وفَتْحًا وفتكًا ، فما استفادا غير قطعتى (بسكوت) وقطعتى لبان ، فأكلا الأوليين وشربا عليهما ، ومضغا الأخريين فربما أغنتا عن الحَصَا الذى نُصحا به لإدرار اللُّعاب .

مازالا جائعين منتظرين ، ولا شىء غير الويل وغير قلب الليل... لكن ها هى ذى سيارة تقترب فتقف :

– يا شيخ ، معك وقود ؟

– لا ، هل معك أنت أكل ؟

– لا ، سلام عليكم ...

ما أَضَلَّ عقاربَ الساعة فى هذه الظلمة !... ها هى ذى سيارة أخرى تقترب فتقف كذلك :

– يا شيخ ، معك وقود ؟

– لا ، لكن هل معك أنت أكل ؟

– معى (كيس) خبز .

– إلينا به ... هل معك إذن (غُموس) ؟

– أيش تقول يا شيخ ؟

– هل معك شيء نأكله بالخبز ؟

– لا والله يا شيخ ، سلام عليكم ...

– محمود ، بهذا (الكيس) عشرة أرغفة ، لكلٍّ خمسة وأمامك الماء ، نأكل الخبز ونشرب عليه .

لم يتجاوز كل واحد أربعة أرغفة ، كانا يلفّان الرغيف ثم يَفْتكان به على مرتين ، ثم حَفِظا الرغيفين الباقيين حَذَر المجهول !

عندما حَلّ منتصف الليل كانت سيارة شرطة عسكرية سعودية قد حضرت بجرار ضخم استطاع أن يخضع الشاحنة ويستتبعها ، ثم لما هم الركب بالسير مال محمود على بعض من حضر إليهما سائلًا بين خَوْفٍ ورجاء :

– بالله أخبرنى ، هل سنَغْرَمُ ثمن إصلاح هذه الشاحنة ؟

– يا أخى ، هذا الذى أصابها قضاء وقَدَر ، ما تعرف القضاء والقدر ؟!

* * *

